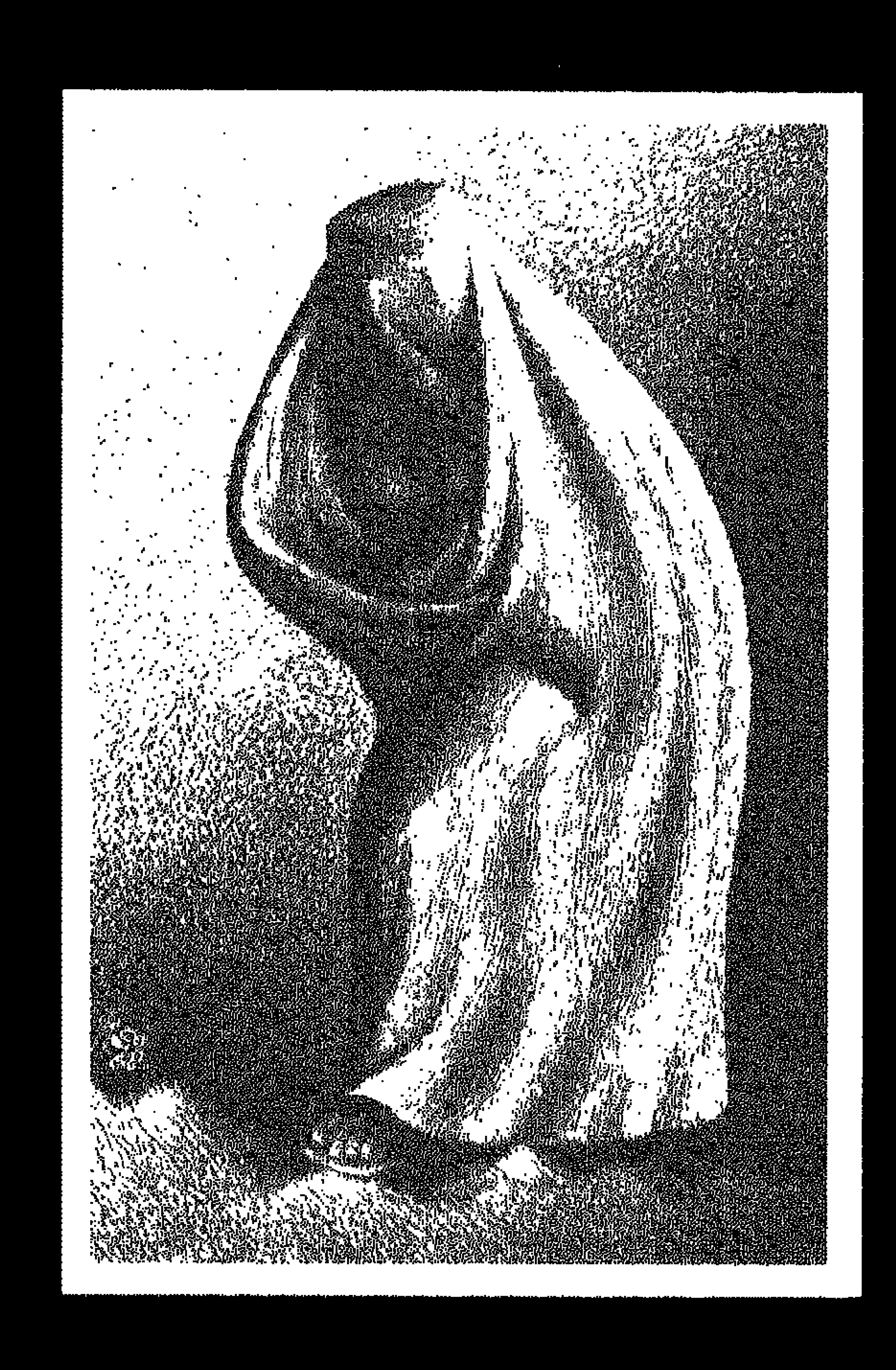
معسكر الأرامل

بقلم الروائية الأفغانية

مـــرال معـــروف

ترجمة

الدكتورة ماجدة مخلوف



دار الشروق

معسكر الأرامل

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ
رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

معسكر الأرامل

بقلم الروائية الأفغانية

مَرَال مَعروف

ترجمة

الدكتورة ماجدة مخلوف

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

فى الساعات الأولى من صباح أحد أيام الجمعة، خَرَجْتُ أنا وأمى وزوجة خالى الكبير، وأخى عبد الرزاق، لنركب السيارات المتجهة إلى معسكر «ناصر باغ»[1].

فى البداية، ركبنا الحافلات المتجهة إلى مستشفى «خَيبَر» فى «هاشناكارى». أخَذْنا أنا وأمى وزوجة خالى أماكننا فى القسم المخصص للنساء فى الحافلة. تحرَّكَتْ الحافلة متأخرة عن موعدها قليلا، وذلك فى انتظار أن تمتلىء بالركاب. وما أن تحَرَّكَتْ؛ حتى ظهر علىَّ الانفعال والفضول الذى كان يعتملُ بداخلى. لم أستطع إخماد هذا الشعور فى نفسى، أو التخلص منهَ، رغم ما بَذَلْتُهُ من محاولات... تُرى؛ هل سيسمحون لنا بدخول معسكر الأرامل..؟

كنت أتُوقُ حقا لرؤية هذا المعسكر الذى قرَّرْتُ الذهاب إليه، بعد أن سَمِعْتُ الكثير عنه، فمعسكر الأرامل مختلف عن كل المعسكرات الأخرى؛ حتى اسمه مختلف وغريب. حدَّثنى عنه ذات يوم أحد مهاجرينا، فقال:

ـ هناك فى معسكر الأرامل، لا يعيش إلا النساء والفتيات، ومعهن الأولاد الذكور الذين لم تتجاوز أعمارهم الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. كما يعيش فيه أيضا النساء والأطفال الذين فقدوا أهليهم. ومع هؤلاء تعيش أمهات وزوجات الشهداء، لاحَول لهن ولا قوةً، ولاملجأ لهن سوى الله العلى العظيم. كذلك أولئك اللاتى لم يبق لهن أحد فى الدنيا. وتُقَدِّم إحدى الجماعات الإسلامية فى «ناصرباغ» المعونات إلى كل أولئك الموجودات فى معسكر الأرامل ـ منذ عام ١٩٨١ ـ ، وذلك قبل قيام اتحاد الجماعات الإسلامية الأفغانية. كما أن دولة باكستان تُوليهم ـ بدورها ـ اهتمامًا خاصًا. تعمل فى معسكر الأرامل، طبيبات ومساعدات ذوَاتَ خبرة؛ ممن ينتمين إلى شعبة النساء فى الجماعة الإسلامية فى باكستان.

---

(١) فى باكستان.

وهؤلاء من اللاتى يمكن أن يُطْلَق عليهن اسم الشُرطة . ولا يمكن لأى رجل ـ مهما كان ـ أن يَدْخُل معسكر الأرامل ؛ حتى ولوكان من الأقارب المقربين لأى أرملة من أرامل المعسكر . وإذا كانت المقابلة مهمة ، فيمكن مقابلة الأرامل فى الخيمة الواسعة المنصوبة على باب المعسكر . وهى خيمة مُعَدَّة لاستقبال الضيوف لمدة محدودة ؛ وهى ثلاث أو أربع ساعات فى اليوم .

* * *

كان الطريقُ طويلاً . . . طويلا . ولم أكن قد رأيتُ من قبل سوى معسكر «ناصرباغ» ، وهو واحد من عدة معسكرات موجودة فى أنحاء «بيشاور» . كان لنا أقارب فيها كلها ، لكن معسكر الأرامل بالذات ، لم يكن لنا فيه أحد .

كنتُ مشغولة طوال الطريق ؛ أفكّر . . . ، تُرى ماذا لو منعونا من دخول المعسكر . . ؟! كنتُ أقولُ لنفسى هذا ، وأنا أتلَفّتُ حولى وأداوم التفكير . ذات يوم سألْتُ أخى عبد الغفّار :

ـ ألا يمكن أن تأخذنى يا عبد الغفّار إلى معسكر الأرامل . . ؟ . . فأنا أريد أن أكتبَ قصة الهجرة إليه .

فقال بدهشة :

ـ أمعسكر الأرامل تقولين . . ؟! أنا لا أقول إنهم يمنعون الرجال فقط من الدخول ؛ وإنما يمنعون أيضا دخول النساء الغريبات . لكنى بالتأكيد مستعدّ للذهاب معك إلى أى معسكر آخر تذهبين إليه .

أصابنى الضيق حقّا ، ذلك لأنى كنت أتوقُ إلى رؤيتهن عن قرب . رؤية أولئك المسكينات اللاتى يعشن فى معسكر الأرامل . وكانت تَعْتَمل فى نفسى تساؤلات كثيرة أطرحها على كل من حولى ، تدور كلها حول هذا المعسكر . وبالضرورة ، كانت أمى تُدْرك رغبتى فى زيارته ؛ ألم أقل إننى كنتُ أتوق ، وبدرجة كبيرة ، أن أذهب إلى هناكَ ، وألتقى بمن يعشْن فيه . كنتُ مشتاقة إلى التعرف على أمهات شهدائنا وزوجاتهم العفيفات ، وأطفالهم الأبرياء المساكين ، الأيتام الذين يفتقدون عائليهم . . . كيف هاجروا . . ؟ ولماذا تركوا قُراهم . . ؟ وكيف دَمَّرَت

القنابل مُدنَهـم. . ؟ أو بمعنى أصَح؛ كنتُ أرغب فى معرفة كل شىء عنهم، كَبُرَ هذا الشىء أو صَغُر.

تُرى؛ كيف استشهد أقاربهم. . ؟ هؤلاء الذين أحبوهم حبهم لأرواحهن - بل وأكثر - وكيف لَقىَ الأخ، والأخت، والزوج، والطفل، والعم، والأم، كيف لقوا حتفهم شهداء فى سبيل الله. . ؟ وكيف ظُلِم هؤلاء. . ؟ وكيف عُذّبوا. . ؟ ثم كيف استُشهدوا. . ؟

من بين ما سمعتُ عن هذا المعسكر، أن كثيراً من الأطفال ممن بلغوا الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، يذهبون إلى الجبهة. وعندما يرجعون لرؤية أمهاتهم، وأخواتهم فى معسكر الأرامل، يُجبرون على الإقامة فى معسكر آخر منفصل عنهن. لكن يتُاح لهم أن يلتقوا بأمهاتهم لمدة تتراوح بين ثلاث وأربع ساعات فى اليوم الواحد. كما أن بعض الأولاد ممن بلغوا الخامسة عشرة، يتركون المعسكر، ليقيموا فى معسكر آخر، وتقول أمهاتهم« لقد بلغ الأولاد مرحلة القدرة على رعايتنا».

ذات يوم كانت أمى فى زيارة أسرة من أسَر مُجاهدينا الأفغان، ممن هاجروا حديثًا من أفغانستان إلى باكستان. وتصادفَ أن كان فى زيارة هذه الأسرة أختٌ صيدلانية مهاجرة، وتعرفَت أمى عليها. وكانت هذه الأخت، تمتاز بدأبها فى العمل. فهى تنتَقل من معسكر إلى آخر، فى كل وقت؛ ليلا كان أو نهارا، صيفا أو شتاء، تقوم بخدمَة مُهاجرينا المرضى والجرحى.

أثناء هذه الزيارة، دار الحديث بين أمى وبين الأخت الصيدلانية، حول معسكر الأرامل. فقالت لأمى:

- إن المسئولين عن معسكر الأرامل، لا يعترضون على دخول النساء، إلاّ إذا أثَرْنَ شكوكهم. وإذا كانت أختنا «مَرَال» ترغب فى دخول هذا المعسكر؛ فيمكن أن أكتب الآن رسالة إلى إحدى أخواتنا الطبيبات هناك لتساعدها، حتى لا تواجه صعوبة ما. وإن شاء الله، ستَلْقى منها العون اللازم.

فشكَرَتْها أمى. وغمرتنِي الفرحة حقا عندما سلّمَتْنى أمى هذه الرسالة. كانت

زوجَة خالي الكبير قد هاجَرَتْ حديثا من أفغانستان ، فأبْدَت رغبتها في الذهاب معنا ، بقولها :

ـ كم أنا مشتاقة لرؤية شعبي .

عقب هذا قررنا الذهاب إلى معسكر الأرامل . وعقدنا العزم على ذلك يوم الجمعة التالي بإذن الله تعالى .

* * *

بَدَأَت الحافلة تخلو من رُكَّابها كلما اقتَرَبَتْ من الموقف الرئيسي للحافلات ؛ وهو محطتها الأخيرة . ونظرتُ إلى مفكّرتي بما فيها من رسالة الصيدلانية إلى السيدة الطبيبة «أسْفَر» ، وأنا أمَنّي نفسي ، بأنهم إن شاء الله سيسمحون بدخولنا .

وقَفَت الحافلة أمام مستشفى «خَيبَر» ، وهي محطتها الأخيرة . نزلنا من الحافلة ، ووقفنا فوق الرصيف ننتظر العربات التي ستحملنا إلى «ناصرباغ» . كان أطفال المهاجرين يشتغلون باعة متجوّلين ، وقد وقفوا على الرصيف ، ينادون بأعلى صوتهم على أنواع الفواكه التي جلبوها من أماكن بعيدة ، مثل ؛ البرتقال والموز والبطيخ والكمثرى والبرقوق .

كانت الشمس تُلهب الجو بحرارتها ، ونحن بصعوبة نكاد نلتقط أنفاسنا من وراء النقاب ، فانتقلنا إلى الجانب الأيمن من الطريق ، لنحتمي بظلال الأشجار .

كان الزحام قد بلغ من الشدّة مبلَغه . كل المهاجرين تقريبا أفغان ، وكان الماء أكثر شيء يباع في هذه المحطة ؛ فالناس من شدّة الحرّ ، كاد أن يغشى عليهم . لهذا كانوا يتزاحمون حول باعة الماء المنتشرين في كل مكان . . . السيارات نصف النقل ، والعربات ، والشاحنات الكبيرة والصغيرة ، تمر من أمامنا بسرعة ، فتثير التراب والضوضاء وراءها .

* * *

كدتُ أفقد صبري من شدّة الحر والانتظار ، فإذا بأخي عبد الرزاق ، يُشير لنا ـ وهو جالس في عربة نصف نقل ـ بأن نركب . جلسْنَا بجوار السيدات في مؤخرة

العربة . وفى دقائق معدودة ، كانت العربة قد امتلأت عن آخرها بالركاب ، وما أن تَحَرَّكَت ، حتى أخذنا نتلفت فيما حولنا ، ونتطلع إلى الطريق الذى خلّفَته العربة وراءها . النهر يتدفق عن يمين الطريق ، والأشجار الخضراء والحقول ، تمتد على مرمى البصر ، عن يساره .

قطعنا مسافة طويلة فى هذا الطريق ، ثم وصَلَت العربة إلى مكان دمّره فيضان النهر ، فاجتازته بصعوبة ، ثم ابتَعَدَت عن طريق النهر وسَلَكَت طريقا آخر وسط الصحراء الشاسعة ، المترامية الأطراف . وأخيرا ، لاحت أمامنا الخيام المتقدمة من معسكر «ناصرباغ» .

* * *

كنا نتطلع حولنا بعيون دامعة ، والألم والقهر يعتصرنا ، أجدُنى عاجزة عن وصف حقيقة ما رأيته من النافذة الخلفية للعربة التى نركبها ، الأطفال المهاجرون ، يحملون أباريق الماء فى أيديهم ، ويركضون وراء العربة . وأهلنا الذين يحملون فوق رءوسهم ، علب الزيت الفارغة ، وقد ملئوها من ماء النهر .

كل الخيام متشابهة ، لا تختلف عن بعضها فى شىء . خيام . . . خيام لا نهاية لها . . . وبيوت متواضعة مبنية من الطين ، كلها تتكون من غرفة واحدة . . . وأطفال أبرياء مثل الزهور الأفغانية ، أقدامهم حافية ، وملابسهم ووجوههم مُلَطَّخة بالطين .

* * *

كانت العربة تشق طريقها بين الخيام بصعوبة وبطء . عشرات الآلاف من الخيام . خيام لا تُعد ولا تحصى . . . خيام لا أوَّل لها ولا آخر . ثم توقّفَت العربة ، ونادى علينا أخى عبد الرزاق لكى نغادرها ، فنزلنا منها .

مشينا وراء عبد الرزاق ، إلى أن وصلنا إلى مجموعة من المجاهدين ، كانوا يجلسون مُطرقين برءوسهم ، أمام إحدى الخيام . فألقى عليهم أخى السلام وسألهم عن مكان معسكر الأرامل . فوصَفوا لنا مكان المعسكر ، وقالوا إننا سنصل إليه بصعوبة . ثم تفضل اثنان منهم مشكورين بمرافقتنا لتوصيلنا إلى مكان المعسكر .

سار عبد الرزاق أمامنا، ومعه المجاهدان، ونحن من ورائهم ببضع خطوات. كنا نشعر بإعياء من شدّة الحر. وأثناء مرورنا أمام الخيام، كنا نَرُد تحية نساء وطننا المهاجرات، اللاتى يرحِّبن بنا وهن جالسات أمام الخيام.

كان الحر شديدا.. وقاهرا. والرجال يسرعون الخطى أمامنا؛ بينما تأخرنا نحن النساء وراءهم، فقد كنا نتبادل كلمات خاطفة مع السيدات المهاجرات اللاتى يدعوننا إلى خيامهن. ولما غاب عبد الرزاق والرجلان عن نظرنا. حَثَثْنا الخطى لنلحق بهم.

* * *

مشينا على مقرُبة من مجموعة نساء، حوالى عشرين امرأة، ينتظرن دورهن عند بئر ماء، بينما انتَحَت بعضهن جانبا فى مجموعات صغيرة مكونة من ثلاث أو خمس سيدات، أخذن يتجاذبن أطراف الحديث. كن جميعا يُرَحِّبن بقولهن: أهلا وسهلا.

قطعنا جزءًا من الطريق، ثم رَغبَت أمى أن تقف قليلا لتستريح. كانت أمى أثناء الطريق ترد على تحية النساء فى كلا الجانبين، وتهز رأسها بالتحية لهن، والألم يعتصرها. وغصَّة ألم تملأ حلقها، فتأوَّهَت رغما عنها.

انفَضَّت النساء من عند البئر، واحدة تلو الأخرى، وبدأن فى الالتفاف حول أمى. لم تستطع أمى أن تتمالك نفسها، فأجهَشَت بالبكاء، وبكَت النساء معها.. نعم... كلهن شاركنها البكاء. كنا كلنا أبناء أفغانستان... نبكى معا. كان من بين النساء، امرأة طاعنة فى السن، تجلس على الأرض، وقد احتوت بين ذراعيها طفلا فى الخامسة من عمره، تضُمّه إلى صدرها، وتبكى فى حزن وألم دفينين وتردد:

- آه... آه يا بلادى، آه... وألف آه. الشوق إليك لا ينتهى، والغربة والفراق أيضا لا ينتهيان. آه يارفيقات بلادى الحبيبات، آه لو تطاوعنا مآقينا الآن، لعل دمع عيوننا يطرد الروس من بلادنا ويبعدهم عنا... ربما يُنسينا دمع عيوننا ما نحن فيه من ألم.

* * *

قصة أرملة الشهيد عماد الدين

كانت سيدة فى مقتبل العمر، تنتحى جانبا، وتحاول أن تجفف بطرف طرحتها، دموع عينيها التى تسيل فوق وجنتيها. وبهذه العيون الدامعة، وبكلمات يملؤها الشوق، توجَّهَت بالسؤال إلى أمى:

- من أين أنتُنَّ يا بنات بلادى..؟

قالت أمى:

- من «لاغمان».

قالت السيدة وهى تبكى:

- وأنا أيضا من «لاغمان». أنا زوجة الشهيد عماد الدين. ربما تكونين قد سَمِعت باسمه من قبل.

ثم استطرَدَت وهى تشير إلى ابنها ذى العشر سنوات، الذى ينظر إلينا بعينين حائرتين:

هذا ابنى صلاح الدين، إنه أكبر أبنائى.

قالت هذا وهى تحاول جاهدة السيطرة على نحيبها، وكأنها وجدت من يستمع إلى آلامها. كانت تحكى كل ما يجول بخاطرها. قالت السيدة الشابة:

- يسألنى - ابنى هذا - كل يوم عن أبيه، ولماذا لا يأتين عندنا، فأجيبه وبقية إخوته بقولى:

- أبوكم لا يستطيع زيارتنا الآن، لأنه فى الجبهة. إنه لا يستطيع المجىء إلى هنا. وإذا افترضنا مجيئه، فمن إذن سيقاتل الروس هناك..!! لكن عندما تتحرر بلادنا - إن شاء الله - سنعود نحن إلى أفغانستان.

فيُعقِّبُ الأولاد على هذا بسؤالهم:

- لكن يا أمنا، آباء أصدقائنا أيضا فى الجبهة مثل أبينا، فلماذا إذن يأتى آباؤهم دائما لرؤيتهم..؟ إنهم يأتون ثم يرجعون إلى الجبهة ثانية.

فأجيبهم :

ـ إن والدكم قائد، ومن الصعب على القادة ترك الجبهة، لأن كل شيء هناك بأيديهم .

أقول لهم هذا فيقتنعون .

وهكذا كنت أتحايل على تساؤلاتهم هذه، وتمضى بنا الأيام . لكن حدث ذات يوم أن دخل ابنى صلاح الدين هذا خيمتنا وهو يبكى فسألته :

ـ ولِمَ البكاء يا ولدى . . ؟

قال :

ـ لا شيء يا أمى .

ثم انزوى فى ناحية واستمر فى بكائه . وبالرغم من كل أسئلتى، لم يُجبنى . فتوقفتُ عن الإلحاح عليه، وتصوّرتُ أنه تشاجر مع بعض الأولاد فى الخارج، لذا تركته وشأنه . وفى المساء، أخلَد إخوته إلى النوم، وآوى هو أيضا إلى فراشه وسحب الغطاء فوق رأسه، وسمعت نحيبه تحت الغطاء، ففهمتُ أنه مازال يبكى، ولم أستطع أن أفهم سبب بكائه، فرفعت الغطاء عن رأسه وسألتُه باهتمام :

ـ تكلّم يا صغيرى . . . كلمنى يا طفلى الرقيق، لماذا البكاء . . ؟ أتشاجرتَ؟ ؟

فألقى بالغطاء وهو يبكى، وقال :

ـ صارحينى يا أمى . . . أحقا مات أبى . . ؟!

لحظتها شعرت وكأن الدنيا قد تهدمت فوق رأسى . فجلستُ إلى جواره حتى لا يستغرق فى همومه . وبدأتُ انظر إليه والحيرة تملؤنى، ترى . . . كيف عرف بالأمر . . ؟ نظرتُ إليه فإذا هو فى انتظار إجابة منّى عن سؤاله . وتملّكَتْهُ الدهشة أمام نظراتى الحائرة، ورأى الأمر وكأنى أتلقى هذا الخبر لأوّل مرة . وسألته وأنا أستجمع شتات نفسى :

ـ لا . . . إنه لم يمت ياولدى . . . من قال لك هذه الأكذوبة الكبيرة . . ؟!

فوضع رأسه فوق ركبتيه، وقال وهو مستمر فى بكائه :

ـ لا ياأمى . . . ، أنت لا تعلمين شيئا . لقد مات أبى . هذا ما عرفته من الأطفال . كنت اليوم ألعب معهم لعبة الحرب فى الجبهة . وقلت إننى سأقوم بدور القائد . فرفض بعض الأطفال، وقالوا لن أقوم أنا هذه المرة بدور المجاهد الذى يستشهد فى الجبهة . فقلت لهم إن والدى قائد، ولذا سأقوم أنا أيضا بدور القائد . فقال عبدالأحد :

ـ لقد استشهد والدك منذ فترة طويلة، وأنت مازلت لا تعلم بهذا .

فقلت لهم :

ـ إنكم تكذبون .

وأخذتُ أتشاجر مع عبد الأحد . فقال لى :

ـ إذا كنت لا تصدّق، فتعال عندنا فى خيمتنا، فقد أحضرَ والدى مجلة فيها صور الشهداء . لقد رأيتُ صورة والدك فيها . وعندما أطْلَعَ والدى أمى على الصورة، بكَت أمى . هيا، تعال لأريك المجلة، فذهبتُ معه .

قال ولدى صلاح الدين هذه العبارة، ثم سكت عن الكلام . كان يخشى أن يقول ما رآه، فسألتُه وأنا مترددة :

ـ هل رأيتَ الصورة . . ؟ هل رأيتَ صورة والدك فى المجلة . . ؟

فرفع رأسه وقال :

ـ لاتحزنى يا أمى . أعلمُ أنى فاجأتُك بالخبر، نعم رأيتُها . الصورة الموجودة فى المجلة، هى نفس صورته الموجودة عندناً، رأيتُها وبدأتُ فى البكاء، دَخلَت علينا أم عبد الأحد، واستفْسرَت عن الأمر، فأدركَته وأخَذت تضرب عبد الأحد، ثم ضمّتنى إلى صدرها وقالت :

ـ لاتبك يا صلاح الدين، فابنى يكذب . احذر أن تصدق هذا الخبيث . إنه يغار منك . فوالدك قائد، وهذه المجلة تنشر صور القادة .

ثم تستطرد السيدة صغيرة السن فى حكايتها قائلة :

ـ قال لى ابنى ، إن أم عبد الأحد لا تعرف القراءة . لكنه قرأ المكتوب فى المجلة أسفل الصورة . مكتوب «الشهيد القائد عماد الدين» . قال ابنى هذا ، ثم سكت عندئذ لم أستطع أن أخفى الأمر عنه . فقلت له :

ـ نعم ، لقد استشهد والدك . استشهد فى السنة الماضية ياولدى ، ويجب عليك أن تفخر بهذا بدلا من أن تحزن .

فقال :

ـ كيف يا أمى . . !! إنك لاتعلمين بالخبر . . !! أين قولك منذ قليل أن والدى لم يمُت . . ؟! أحقًا لم يمُت . . ؟

فقلت له أواسيه حتى ينام :

ـ بالطبع هو لم يمت . فالشهداء أحياء لا يموتون . ألم يقل لك مُعلمك هذا . . ؟ ألم تقل لى هذا . . ؟ والدك الآن يرانا ، لكننا لا نستطيع أن نراه . وهو الآن بإذن الله فى مكان مريح ، ليتنا نحظى بمثله . وإذا بكيتَ فإنه حتما سيحزن لبكائك . وزيادة على ذلك فإنك ترتكب ببكائك هذا ذنبا .

فقال بانفعال :

ـ أصحيح يا أمى أن أبى يرانا . . ؟ أليس كذلك . . ؟ لقد شرح لنا مُعلمنا أن الشهداء يستقرون فى حوصلة الطير . كما أن والدى مرتاح الآن . عندمَا أكبر سأذهب أنا أيضا يا أمى إلى الجهاد . وسوف أقتل الروس والبرشميين الذين قتلوا أبى ، وربما أستَشهدُ أنا أيضا يا أمى . أيُمكن أن يحدث هذا يا أمى . . ؟

فغَرَسَ بقوله هذا سكاكين فى قلبى . واستمر يتكلم بدون توقف حتى أشرق الصباح .

* * *

توقَّفَت المرأة الشابة عن الكلام ، وغشينا جميعا الصمتُ ، واستغرقنا فى التفكير .

قالت امرأة عجوز أخرى ، وهى تشير بيدها إلى الجبال التى أمامنا :

ـ أبنائى الثلاثة يقاتلون فى الجبهة . ووالدهم شيخ كبير يقطع الخشب فى هذا الجبل الذى أمامك ، ثم ينزل إلى المدينة ليبيعه .

واستطرَدَت وهى تُنهى حديثها :

ـ وماذا عسانا أن نفعل يا ابنتى . . ! ! علينا بالصبر بعد أن عقدنا العزم على أن نتحمّل عبء كل ما يحدث لنا ، إلى أن تنقشع الغُمَّة ، ويرحل الروس عن بلادنا .

* * *

كانت كل واحدة من النساء اللاتى فى المعسكر تحكى أشياء كثيرة . فهذه امرأة عجوز أخرى ـ شعرها مخضَّب بالحناء ـ قالت تواسينا :

ـ يقولون إنهم بصَدَد مساعدتنا . كلهم كاذبون . ياحَظ من يحصل على جوال من القمح مرة واحدة فى السنة . إن الله العلى العظيم وحده هو وحده ، المُعين ، فلم يساعدنا أحدٌ حتى اليوم . هناك من يريدون قهرنا وإذلالنا . لكنهم مخطئون . لأننا أولا وقبل كل شيء نسير عل النهج الذى بَيَّنَه الله لنا . وما دام الله فى عوننا ، فلن نحيد عن هذا النهج أبدًا إن شاء الله . لقد مرَّت الأيام الصعبة منذ زمن بعيد ، فماذا بقى وراءها ! ! إن شاء الله ستتحرر بلادنا أفغانستان فى أقرب وقت . فقط ، علينا أن نصمد .

تكلمت النساء . تكلمن كثيرا . تكلمن ، واستمعنا نحن إليهن لنروى اشتياقنا إليهن . . . نسينا كل شيء بينهن ، وكأننا وجدنا ضالتنا المنشودة . . . وجدنا أفغانستان الحبيبة التى أجبرنا على مغادرتها وفراقها .

* * *

كُنَّا بين كلام واستماع ، والحديث كله مُنْصَبٌّ على المعاناة التى عانيناها . وفجأة تَذَكَّرْنا عبد الرزاق ومن معه . . . تُرى ؛ ماذا حدث . . ؟

نهَضْنَا من مكاننا والحيرة تلُفّنا . وأخذنا نتلفتُ فيما حولنا ، لم نلمح عبد الرزاق وصحبه من قريب أو بعيد . كانت النساء تَرْمُقنا فى دهشة ونحن نتلفت عن اليمين والشمال . أخبرناهن أننا فقدنا أثرَ من كانوا برفقتنا ، وأننا نودُّ الذهاب إلى معسكر الأرامل . وودعناهن رغما عنا ، ونحن نردد :

ـ لعل عبد الرزاق وصحبه فى انتظارنا هنا أوهناك . نستودعكن الله ، ولا تنسونا من الدعاء .

لقد استرحنا قليلا ، فقد كنا مُرهقات من شدَّة الحَرِّ . أخذنا نحثُّ الخُطى ونتلفتُ حولنا بحثًا عن عبد الرزاق ومن معه ، وإذ بنا نَراهم أمامنا ، يجلسون فى انتظارنا فى ظل خيمة الإسعاف . فانفرجَتْ أساريرُنا لرؤيتهم ، لكن أخى كان غاضبا لتأخرنا ، فقال :

ـ يبدو أنكن لم تتركن امرأة إلا استغرقتن معها فى الكلام . . !! تُرى ، ماذا نفعل إذا وصلنا إلى المعسكر فى الليل !!!

قال هذا ثم تقدمنا مع الرجلين ونحن خلفهم . وبعد أن اجتزنا ربوة أو ربوتين ، اقترب منا عبد الرزاق ، وأشار إلى الربوة التى أمامنا قائلا :

ـ اصعدن هذه الربوة ، تجدن أمامكن الخيام المخصصة لأسَر الشهداء . إنه معسكر الأرامل . وسأظل هنا فى انتظاركن . حذار أن تتأخرن إلى الليل ، فقد ضايقتمونى فى أثناء الطريق . وهذا كل ما أريد أن أقوله . . .

توكلنا على الله ، وبدأنا صعود الربوة . كانت أعلى ربوة فى منطقة معسكر «ناصرباغ» . ومع صعودنا كانت مشاعرى تتأجج ، حتى أصبحتُ من شدة الانفعال ، وكأنى لا أستطيع أن أخطو خطوة أخرى . وبلغنا نهاية الربوة ، وهذا يعنى أننى وصلت إلى معسكر الأرامل .

* * *

الربوة مكتظَّةٌ بالخيام . . . الصمت مطبق حولنا ، والشمس فى كَبد السماء . تأملنا الخيام بلونها الأبيض المصفوفة . . . بعضها جديد وبعضها قديم ممزق . . . المكان حول الخيام نظيف للغاية . . . والسكون تام . كاد أن يُغشى علينا من شدّة الحر . رفعنا النقاب عن وجوهنا بعد أن تأكدنا من عدم وجود رجال . كان المكان من حولنا ينطق بالمعاناة .

سواتر كل الخيام - وهى بمثابة الأبواب - مُسْدَلة. أزيحَ ساترُ الخيمة التى أمامنا. وخرجت منها فتاة سمراء، فى حوالى الثانية عشرة من عمرها، تحمل فى يدها طبقا للغسيل. وبمجرد أن لمحتنا، تركت الطبق على الأرض، وعادت ثانية إلى الخيمة. منظر الفتاة أثار أحزاننا. لكن ها هى تخرج من الخيمة مرة أخرى، وفى يدها بضع قطع من غسيل متسخ... كنا نقف أمام الخيمة ونتابع كل تحركات الفتاة رغما عنّا. والأمر الذى حيّرنا، أن الفتاة ربما لم تلحظ وجودنا، أو ربما أيضا لم تكترث بوجودنا. ألقت الفتاة بقطع الغسيل فى الطبق، وبدأت تغسلها.

أخذتُ أتطلع إلى الخيام الأخرى. رأيتُ على مسافة منّا خيمة بيضاء كبيرة بعض الشىء، منصوبة فى ركن قصىّ، حولها خيام أصغر منها ونظيفة مثلها. وفوق قائم الخيمة الكبيرة، راية بيضاء تموج بشكل عذب، مكتوب عليها بلون أخضر كلمة التوحيد «لا إله إلاّ الله». نظرتُ إلى الهلال الأحمر المرسوم على سقف الخيمة... ولا أعرف لماذا انشرح صدرى لرؤية الراية البيضاء. إنها خيمة الإسعاف. معنى هذا أننا وصلنا إليها أخيرا. تُرى؛ هل سنتمكن من مقابلة السيدة الطبيبة «أسفَر»..؟... قلتُ لأمى ولزوجة خالى:

- ها هى الخيمة التى تعمل فيها الطبيبة، هيا بنا إلى هناك لعلنا نلقاها.

فى طريقنا إلى خيمة الإسعاف، رأينا امرأتين تخرجان من أمامنا وتتجهان إلى ناحية ما، وقد ارتسمت عليهما علامات الاضطراب. إحداهما نحيفة، تُنْزل كتفيها، وتضع يديها فى خصرها عندما تسير... ملابسها مُرَقَّعة. أمّا المرأة الأخرى، فهى سمراء وترتدى نفس الملابس المرقّعة. كانتا تسيران على مهل. استرعت نظراتنا انتباههما، فاقتربتا منا، ورحبتا بنا باللغة الفارسية، ثم سألتنا إحداهما:

- أتبحثن عن أحد هنا..؟.

أجابت أمى:

- نعم، نبحث عن السيدة الطبيبة «أسفر».

فتبادلت السيدتان النظر إلى بعضهما ، وكأنهما تقولان « لقد انصرفت الطبيبات غالبًا » . ثم أشارت إحداهما ـ وكانت شديدة النحافة ـ إلى الخيمة وتساءلت :

ـ فى الحقيقة أن اليوم عطلة ، ترى ؛ أَلَدَيْكُنَّ أمر مهم . . ؟ !

تسمَّرْنا فى مكاننا . . . كيف نسينا هذا . . ! ! نعم ، فاليوم بالفعل يوم الجمعة ، وهو يوم العطلة . وعندما لاحظت السيدتان حيرتنا ، قالت إحداهما :

ـ ماذا لو أتيتن غدا . . ؟ . .

ثم استدركَتْ قائلة :

ـ انتظرن لحظة ، فربما تكون بين الطبيبات المناوبات . يمكنكن أن تتفضلن بالمجىء إلى خيمتنا الآن لتسترحن ، وسأذهب أنا وأستطلع الأمر . وإذا وجدتها فسأخبركن . . . يبدو أنَّكُن قادمات من مكان بعيد ، ولابد أنكن مُتعَبات الآن ، . . . بعد قليل يزول عنكُن التعب . فى حقيقة الأمر كنا متعَبات حقا ، لذا قبلنا دعوتها .

ونحن فى الطريق إلى الخيمة التى أمامنا ، قالت أمى :

ـ لايمكن . . . فهذا أمر بعيد عن اللياقة ، ليس من البر أن تتكبَّد السيدة «أسفر» كل هذه المشقة لتأتى إلينا هنا . هيا لنذهب نحن إليها .

ذهبنا مع السيدتين . . . تقدمتنا السيدة السمراء . وبعد قليل قالت :

ـ انتظرن . . . علينا أن نرجع . ليس هناك طبيبات مناوبات على الأرجح ، إنهن انصرفن لعدم وجود عمل . فرجعنا والأسى يملؤنا .

أثناء مرورنا أمام إحدى الخيام ، قابلنا امرأة طويلة القامة ممتلئة ، فى حوالى الأربعين من عمرها ، ذات وجه أحمر وحجاب أسود . ألقت علينا السلام ودَعَتْنَا إلى خيمتها ، فقبلنا دعوتها على الفور ، وتوجهنا إليها ومعنا السيدتان .

* * *

أمام الخيمة، رأينا مظلة واسعة مصنوعة من قماش قديم، دعتنا المرأة أن نجلس تحتها خارج الخيمة، وفرشت لنا قطعة من القماش على الأرض، فجلسنا فوقها، ثم خلعنا الحجاب الأفغانى، وشربنا من الماء الفاتر الذى فى الإبريق الموضوع فى أحد الجوانب.

جلست صاحبة الخيمة مُتَرَبِّعة إلى جوارنا، وانطلقت تتكلم معنا بعذوبة، وهى تضحك:

- هذه هى خيمتنا المتواضعة وماؤنا الساخن. ألف حمد وشكر لله على حالنا هذا. . . وأنْتُنَّ كيف حالكنَّ. . ؟. . . أهلا وسهلا بكنَّ، . . . عسى ألا تكنَّ مُتعَبات.

بدأنا الحديث مع النساء عن معسكر الأرامل. وقالت صاحبة الخيمة وهى امراة مضيافة:

- كل هذه الخيام التى ترونها، خيام الأرامل واليتامى. وهى حوالى ألفى خيمة.

سألت أمى:

- أكلّها للأرامل واليتامى. . ؟.

أجابت كل النساء فى صوت واحد:

- نعم كلها.

سألت أمى:

- وماذا عَنكُنَّ. . ؟.

ابتسمت صاحبة الخيمة، وقالت:

- عندما استُشهد زوجى وابنى، وكان برتبة يوزباشى، كان لابد أن ينهب الروس بيتى. فأخَذْتُ بناتى الشابات الخمس، وولدىّ هذين، وجئت بهم إلى باكستان. ساعدنا المجاهدون فى هذا. ونصبتُ خيمة هنا. وهأنذا أعيش، وتمضى بنا الأيام. . . أغادر المعسكر فى الصباح، وأظل أطوف بين المعسكرات من خيمة

إلى أخرى، أبيع المُطَرّزات، حتى حلول الليل... وهكذا نعيش بعون الله، وتمضى بنا الأيام.

واصَلَت المرأة السمراء - التى قابلناها من قبل - الحديث معنا، وقالت:

- أنا أيضا، عندما استُشهد زوجى وابناى، هاجرتُ مضطرة إلى باكستان. لى ابنٌ مازال يجاهد فى أفغانستان، ولى أيضا أربع بنات، ونعيش فى هذا الجو المُتقلِّب؛ نجوع مرة، ونشبع مرة.

قالت امرأة أخرى يبدو أنها مريضة:

- مات زوجى بعد مرض. وعندما استشهد ابنى وكان مُعلما، لم يبق لى فى الحياة ابن آخر أرعاه، جئنا لنعيِّش فى هذا المعسكر، أنا وابنتىّ: إحداهما مجنونة، والأخرى عرجاء... إننا ندعو الله ونتوسَّل إليه فى كل لحظة، وننتظر اليوم الذى ستتحرر فيه أفغانستان، بالدعاء والتوسل إلى الله... أن يرفع الله عن أفغانستان هذه الغُمَّة... هذه السحب السوداء سواد القطران... رغبتى أن أموت هناك، وأن ترى عيناى المُذنبَتان هاتان - ولو لمرة واحدة - راية الإسلام تعلو خفاقة فوق أفغانستان، ولن أحزَن إن متُّ بعد ذلك.

بينما الحديث مع هؤلاء النساء مستمر، كانت أخريات يأتين من الخيام المجاورة، ويتجمعن شيئا فشيئا، فيلقين علينا السلام، ثم يجلسن إلى جوارنا... كلنا أرامل... كلنا أيتام... كلنا أمهات شهداء.

* * *

جَلَسَتْ بالقرب منِّى، فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها، كانت فتاة خجول، فى غاية الجمال. تنظر بعَينَيْها الزرقاوين، فى كل اتجاه... شعرها الذهبى منسدل حتى خصرها. ورغم الفقر والفاقة، لم تختف الورود الحمراء التى تعلو وجنتيها. كانت تميل إلى النحافة والطول. سألْتُها عن اسمها وأنا أضع يدى فوق كتفها، فاحمر وجهها من شده الخجل، وأرخَتْ رموشها الطويلة، وقدَ اعتراها خجل شديد، وقالت:

- اسمى «نازلى».

فتضاحكَتْ فتيات أخريات، من نفس عمرها، كن يجلسن بجانبها ويلْكزْنَها. قالت أرملة، وصَلَتْ من الخيام التي في جوانب المعسكر:

- إن نازلي كانت عَثِرَةَ الحظ.. فهي يتيمة الأب والأم...

وقالتْ أخرى:

- عندما استشهد إخوة نازلي الثلاثة في مدينة «قَنْدَهار» هاجَرَت نازلي مع أسرتها إلى باكستان. وأقاموا في معسكر «المنصورة». وذات يوم، أصاب الحرُ الشديد والدَها بالجنون، فانهال بالبلطة على أمها، ثم هَمَّ بقتل أبنائه، فأمسكَ به الناس وسَلَّمُوه إلى الشرطة. ولا يعرف أحد حتى الآن، إن كان قد مات في السجن، أم هرب إلى الصحراء. ومنذ ذلك الوقت، صارت نازلي وأخَوَيْها في رعاية عمتهم الأرملة.

قَصَّتْ المرأة علينا قصة حياة نازلي المؤلمة، وأثناء ذلك، أخفَتْ نازلي رأسها، والدموع تسيل من عينيها الحمراوين، فجذَبْتُها نحوي برفق، وقلتُ لأخفف عنها:

- نازلي أيتها الجميلة، لماذا تبكين..؟. ها أنت ذا ترين أننا جميعا نعيش نفس المأساة، ولنا ثواب المعاناة إن شاء الله.. أليس كذلك..؟! أصحيح يا نازلي، يوجد في معسكركم خيمة تتعلمون فيها..؟

توقفتْ نازلي عن البكاء، ورفعتْ رأسها ببطء وقالتْ:

- نعم، إن خيمتنا بعيدة في آخر هذا المعسكر.

فسألتُها:

- وأنت هل تذهبين إليها للتَّعَلّم..؟.

قالت:

- نعم، لكني لا أستطيع أن أذهب كل يوم. فأنا أقوم بإحضار الماء، لأن أعمالنا كثيرة.

نَسِيَتْ نازلي كل شيء، وأخذتْ هي وصديقاتها يتكلمن بطَلاوة ويحكين كل

مايَرد على خاطرهن. وبينما أنا مستغرقة مع الأطفال، كانت أمى وزوجة خالى، تشارَكان النساء بكائهن وكلامهن.

كانت هناك امرأة عجوز تجلس على الأرض، بضفائرها البيضاء، وملابسها الطويلة المرقعة. تحتضن بين ذراعيها طفلا فى الخامسة. الطفل كأنه كرة من النور... طفل صغير ذو عينين خضراوين واسعتين. وكانت المرأة العجوز فى أثناء تلك الحكايات، تستمع إليها وهى تبكى، بدون أن تشارك فى الحديث.

استرعى الطفل الصغير انتباهى؛ وأعجبنى. كان وجهه ينطق بالبراءة. فمددتُ يدى وأخَذْتُه من المرأة العجوز، وأجلَسْتُه فى حضنى... وسكَتَ الجميع، وأخَذْن ينظرن إلىّ والابتسامة تعلو وجوههن. كان الطفل يرتدى بيجامة مخططة، وقميصا صغيرا جدا. وقد بَدَا بشعره الأصفر الذهبىّ، شبيها بالفتاة نازلى. كان جميلا بيديه الصغيرتين، ووجهه الممتلئ، لدرجة أننى لم أحب أن أتركه. فنظرتُ إلى المرأة العجوز وسألتها:

- جدتى، هل هذا الطفل الصغير حفيدك..؟

هزّت المرأة رأسها وقالت والابتسامة تعلوشفتيها:

- نعم يابنتى، إنه حفيدى.

كانت أمى وكل النساء، يتنصتن إلى ما يقال، فسألَتْها أمى:

- مع من تعيشين..؟.

هزّت المرأة العجوز رأسها، وقالت والأسى يملؤها:

- لاتسأليني... لاتسألى يابنتى... لاتسألى. ماذا أقول..؟... ومن أين أبدأ..؟!... كل الآلام تجمعت فى قلبى. إننى أنتظر كل يوم وكل ليلة، مَلَكَ الموت. لكننى أخاف أن أموت قبل أن يتحقق أملى.

قالت هذا، وامتلأت عيناها بالدموع. وبعد برهة، بدأت تقصّ حكايتها. كانت تتكلم برفق، وبطء. وأنا الآن أحدثكم عن قصة الهجرة التى حكَتها لى هذه الجدة المهمومة، الراسخة كالجبال، صاحبة الإيمان الذى لا تهزّه أى قوّة.

* * *

منطقتنا، «وزيرى دَنيز». . . أين نحن منها الآن يابنتى. . !! هذه المنطقة الجبلية، البالغة الخضرةَ، الشبيهة بالجنّة، والمشهورة بمياهها الباردة كالثلج، وفاكهتها المتعددة الأنواع. . . ياحبيبتى يا منطقتنا الباسلة. . . إنها «وزيرى دنيز». . . عرين المجاهدين التى تقصفها طائرات ومدافع الكفّار، وتقصف حدائقها، ووديانها كل يوم.

توفى زوجى قبل سنوات، ولم يبق لى فى الحياة سوى ابنى. كان زوجى رجلا متديِّنا، ممن يعملون على تطبيق شريعة الله. ورثَ ابنى عن والده بضع دونمات من الأرض. كنا نمتلك البيت الذى نسكنه. كما كان لدينا بستان أو اثنان. أرسلتُ ابنى إلى المدرسة بعد وفاة والده. وهو فى الصف الخامس أصيبَ فى حادث جرّار، فقد سَحَق الجرّار ساقه، وصار طريح الفراش. وبعد سنة واحدة، اضطر الأطباء إلى بتر ساقه إلى الركبة، وكنتُ أعيش مع ابنى ذى الساق الواحدة، ونشكر الله ألف مرّة.

ومضت السنون، ولم يتعلم ابنى بعد تخرّجه فى المدرسة المتوسطة. ووقع على كاهلى عبء الأرض، واكتساب لقمة العيش عن طريقها. وبعد ذلك زَوَّجْتُه. كنّا سعداء، فقد كان مجتهدا رغم ما به من عرج. معتمدا على قوّة ساعديه. لم يكن ابنى يفرّق بين غنى وفقير، لذا أحَبّه أهل القرية. فقد التزم بالنهج الذى رسمه له والده، وكانت أكبر أمنياته أن يحج بيت الله.

فى السنة التى استَعَد فيها للحج، احتل الكفارُ بلادنا. آه. . . كم حزن فى تلك الأيام، وكم بكى واحترق من شدّة البكاء. لم يكن فى استطاعتى أن ألمّ بالشىء الكثير عما يُبكيه. ثم أجلسنى ابنى أمامه، وبدأ يشرحُ لى ما حدث، وقال:

- يا أمى، لقد اعتدى الكفار على بلادنا، ويريدون أسرنا. وهؤلاء الكفار لايؤمنون بالله. وبعد أن يحتلوا بلادنا، سيعملون على تحويلنا عن ديننا. وإذا لم يفلحوا معنا، فسوف يصرفون أبناءنا، وأحفادنا من بعدنا، عن دينهم. . . أمى، هل تفهمين معنى هذا؟. . . هل تعرفين يا أمى ماذا يجب علينا أن نفعل فى هذا

الموقف . . ؟ يجب أن نبدأ الجهاد الذى أمرنا به الله ورسوله . . . نعم يا أمى ، بهذا فقط نَنْجو من الكفار . . . لأننا إذا سكَتْنا ، وبحَثْنا عن طريق آخر غير الجهاد للنجاة منهم ، نكون قد أخطأنا خطأ كبيرا . . . لكن هؤلاء الكفار ، يخافون من المسلمين دائما يا أمى .

وعندما أعلن الجهاد الأفغانى ضد الروس ، وهو ما كان يصبو إليه ابنى ، كانت سعادته بلا حدود . وكان الله قد رَزَقَه بطفلين ؛ أحدهما هذا الذى فى حضنى ، والآخر ، . . . وغاب عن ذهن الجدة العجوز اسم حفيدها الثانى ، فبادَرَها أمين الله الذى يجلسُ بين ذراعيها ، وأدار وجهه الوضّاء ناحيتها وقال وهو يُذَكِّرها باسم أخيه :

ـ حميد الله يا جدتى ، هل نسيتِ اسمه . . ؟

كانت الدموع تسيل من عينَى المرأة العجوز مدرارا ، وهى تستعيدُ ذكريات الأيام الخوالى ، ثم قالت وهى تمسح دموعها :

ـ نعم ، أمين الله ، وحميد الله . عندما نطقَ ابنى بالحروف الأولى لأول مرة ، أسرَعْتُ بتعليمه أركان الإسلام الخمسة ، والشهادتين ، وكل شىء يمكن أن يردِّده بلسانه . وكان أوّل من سارع إلى الجهاد فى قريتنا . كان يقول والأسى يعتصره :

ـ ماذا عساى أن أفعل يا أمى وأنا بساق واحدة . . ؟ لَوْ لَمْ أفْقِد ساقى الثانية ، لمنعتُ أى كافر من الاقتراب من القرية .

ذات يوم كان المجاهدون يحاربون ، مجموعة من الروس هجموا على قريتنا ، ولم يستطِع ابنى الاشتراك فى مقاومتهم بسبب ساقه المبتورة ، فهَوّنَ عليه القائد بقوله :

ـ هداية الله . . . إنك تَوَدّ الاشتراك فى الجهاد ، لكن إذا لم تُوفّق فى بعض الأعمال بسبب ما بك ، فلا تنس أن حِفْظَ الروح أيضا فريضة . وخوفى هو أن تقع فى الأسْرِ .

قال القائد هذه العبارة ليُثْنى هداية الله عن الاشتراك فى بعض المعارك الشديدة . وذات مساء ، رجع ابنى إلَى البيت وهو مهموم ، وقال :

ـ القائد على حقّ يا أمي . . . فقد أتسبّبُ في خسارة المجاهدين إذا وقعتُ في أسْرِ الروس؛ إذ ربما أفشى سرّ الجبهة كلها تحت تأثير التعذيب. لكنى، لن أدَع الجهاد. قد لا أستطيع الحربَ بالسلاح بسبب إعاقتى، لكنى سأشاركُ إن شاء الله في هذا الجهاد بطُرُق أخرى. كيف . . ؟! كيف لى أن أتركَ الجهاد يا أمي . . ؟! أخبريني .

والواقع أن ابنى هداية الله، اشترك بالفعل في الجهاد. كان ينزلُ إلى المدينة، ولم يكن يُثيرُ شكوك أحد، لأنه مجرّد رجل أعرج. لذا استطاع بسهولة أن يُوطّد صلته بمجاهدى «جلال آباد»، وكذلك بالنظام الشيوعى. ذات يوم قال للشيوعيين :

ـ لقد ضاق الناس ذرعا بالمجاهدين. ونحن أيضا لا نريدهم. إننا مستعدون للتحالف معكم. وأنا مستعدّ أن أندَسّ بين المجاهدين، وآتى لكم بكل تحركات وخطط هؤلاء الأشرار؛ . . . هذا طبعا إذا رغبتم .

وافقَ الشيوعيون على الفور وقالوا :

ـ أحْسَنْتَ أيها الأعرج، إننا في أشد الحاجة لهذا، ولن يشك فيك هؤلاء الأشرار، مهما كان الأمر . . . عليك أن تعرفَ لنا أماكن تخزين ذخيرتهم كلها، وسنعطيك جهازًا لاسلكيا، وبعض الوسائل الأخرى اللازمة لهذه المهمة .

ولكى ينال ابنى المزيد من ثقتهم، قال :

ـ لكنى في حاجة إلى شيء . . . إنى كما ترَوْن رجل أعرج، وحاجتى شديدة إلى النقود .

فأجابوا وهم يسخرون منه ويهددونه في الوقت نفسه :

ـ لاتشغل بالك بهذه المسألة. فإن لنا معك حديثا آخر بشأنها. وسوف نعطيك أكثر مما تتصوّر . . . يكفى أن تعمل ما عليك. وإلا فالويل لك كل الويل، إذا تلاعبت بنا . . . تكون أنت الجانى على نفسك . . . واحذر، فإننا عندئذ لن نأبه بدمع عينيك .

في الوقت نفسه كان قائد المجاهدين يقول لابنى :

ـ كان الله في عونك ياهداية الله . . . فالجهاد الذى تجاهده يعلو فوق جهادنا علوّا كبيرا .

وكان ابنى يحدِّثنى :

ـ أمى . . . لاتبكى إذا استشهدتُ فى هذا السبيل . ولا تنس أن هذا ما علّمني أبى . . . يبــقى بَعْــد ذلك وقَــبْله ، أن هذا مــا أمَــرَنا به الله عــزّ وجلّ . ياأمى . . . يجب أن أنجح فيما أنا فيه ، وإذا متُّ . . . فلا تحزنى .

كنت أدعو له دائما بهذا ، لكنه عندما نطقَ كلمة «متُّ» انشقّ فؤادى ، وكأن ا كلهـا ستنهـار فـوق رأسـى . . . فـأنا أمٌ قـبل كل شىء . . . أمٌ ربّتْ ابنهـا بـألف وشوق وأمل ، وكنت أمتلئ سعـادة ، لأنه يسعى فى طريق الإسلام الذى وجَّ إليه ، فالتزم بالسير فيه .

كان ابنى يقدِّم دائما تقارير خاطئة إلى البرشميين ، ويحصلُ منهم على معلو مهمة جداً ، يَنقلها بدوره إلى المجاهدين . واستمرَّ يعمل على هذا المنوال بنجاح كاملة . . . دون أن تَحُوم حوله أىّ شُبْهَة . فلم يكن أحد يعلم شيئا عن ذلك ال الذى يضطلع به ابنى ؛ سواى ، وقائد الجبهة .

وفى السنة الماضية ، قال له قائد الجبهة ، أن الأوان قد آن ليقوم ابنى بمهمة ضـ استغرق إعدادها أيامًا وأسابيع ، بل وأعواما . والخُطة أن ابني ـ وكان دائم الـ على مركز الحراسة القريب ـ أبلغ الشيوعيين قبل أسبوع من موعد تنفيذ الخطّة قائد المجاهدين سوف ينزل إلى القرية فى ليلة معيَّنة ، ومعه أسلحته ومائة أو أكثر المجاهدين ، ويريد صاحب البيت «فُلان» ، أن يدعوهم إلى طعام ، كما أن الـ بحاجة إلى شراء غنم وأبقار ، وإنها لفرصة للبرشميين أن يشنّوا عليهم هجـ مباغتا . وكان ابنى قد قدّم لهم من قبل بعض التقارير ، بدا فيها أنه صادق . وبذلك استطاع أن ينال المزيد من ثقتهم . وكانوا يغمرونه ـ وهُم سعداء ـ بسَيل النقود . قال له الشيوعيون :

ـ أحسنْتَ أيها الأعرج الداهية . والحق أنك لماكر . نَعدُكَ أننا إذا نجحنا فى القبـ عليهم أحياء ، أن نعطيك من المال ما يكفيك لسنواتَ طوال . والواقع أنك جـ بخبر عظيم .

واتفقوا معه على كيفية تنفيذ الهجوم .

* * *

كان كل شيء معدا تقريبا . بدأتْ مفرزة من البرشميين[1] والروس فى الإعداد للهجوم قبل ليلة من الموعد المحدد حتى لا يتنبه المجاهدون لوجودهم . ولأن عَدَدَ المجاهدين يزيد على المائة ، لذا كانت خطة البرشميين تهدف إلى محاصرة المجاهدين بمفرزة من الجند والأسلحة .

أبلغ المجاهدون كل الجهات القريبة منهم ، بحاجتهم إلى أعداد إضافية من الجند والسلاح . وفى اليوم المحدد ، نزل إلى المأدبة مائة من المجاهدين . وأحاط الباقون بالطرقات والبيوت والحقول ، بل وبِكُل مكان فى القرية ، تأهبًا لقتال البرشميين . لم يكن لدى البرشميين فى الوقت نَفسه ، أدنى خبرعن حصار المجاهدين لهم من كافة الجهات . كما لم يكن لدى المجاهدين ، أدنى خوف من هجوم طائرات البرشميين ، نظرا لحلول الظلام . وكان كل شيء يبدو وكأنه طبيعى وحقيقى ؛ فقد ذُبح الدجاج ، والغنم ، والبقر ، وبدأ المجاهدون يأكلون بسرور . عندما تأكد بقية المجاهدين - وهم يحيطون بالقرية - أن الروس يحاصرون المنزل الذى ضيَّف المجاهدين ؛ هجموا عليهم من الخلف بأسلحتهم الثقيلة والحديثة . آوت جهنم مئات من الجنود الروس ، وكانت الغنائم فى تلك الليلة لا تحصى ، لكن خمسة عشر من المجاهدين ، استشهدوا .

أصدر قادة المجاهدين أوامرهم للأهالى ، بإخلاء منازلهم قبل الهجوم . فصعدْنا كلنا إلى الجبال ، رجالا ونساءً وأطفالا . وعندما علم البرشميون قبيل الظهر بأمر الهجوم ، وقع عليهم الخبر كالصاعقة : . . فجاءوا بثمانى طائرات مروحية ، وثلاث طائرات نفاثة ، وأمطروا القرية بوابل من المدافع ونيران الطائرات لمدة يومين وليلتينَ وتركوا القرية وقد أصبحت خرابا يبَابا .

اضطرَرْنا إلى مغادرة القرية ، فهاجر البعض منا إلى القرى المجاورة أو المدن ، والبعض الآخر إلى باكستان . وأخذت الحكومة تبحث بغير توقف عن هداية الله الأعرج ، وأعلنوا عن مكافأة لمن يقبض عليه حيا أو ميتا .

---

(١) أنصار حزب «برشم» أحد الأحزاب الشيوعية فى أفغانستان .

كنا نقيم مع هداية الله فى الجبال؛ أنا وزوجته وطفلاه. ومضى على ذلك شهران. وذات ليلة نزل ابنى إلى القرية. فأمسك به رجال الحكومة، الذين كانوا يتربصون به بإصرار. وقال الذين رأوه ساعة القبض عليه:

- إن رجال الحكومة، أوسعوه ضربا بمؤخرة بنادقهم، وصفعا وركلا. ثم سحبوه وقذفوا به داخل دبابة، وهم يصيحون:

- تكلم أيها الخنزير الأعرج... فى أى جُحْر كنت تختبئ..؟؟.. ألم نحذِّرك من مغبَّة خداعنا..؟!.. هيا اطلب منَّ إلهك أن يأتى ويخلصك من بين أيدينا... هيا افصح.

وما أن عرف قائد المجاهدين بالأمر، حتى نزل من الجبل إلى القرية ومعه المجاهدون. لكن البرشميين كانوا قد أخذوا هداية الله ومضوا منذ حين. أما الذى وَشَى بابنى لدى رجال الحكومة، ودلَّهُم على مكانه، فجاسوس من جواسيسهم، غادر القرية معهم عقب القبض على ابنى.

أيامٌ مضت وأنا أبكى، عاجزة عن عمل شىء... وأخيرا، كان لابد من اتخاذ قرار. لابد أن أتَلَمَّسَ أخباره مهما كانت النتيجة. فلما تناهى إلى سمعى أنهم نقلوه إلى مدينة «جلال آباد»، هرَعْتُ إلى هناك. ورابطْتُ على باب السجن ليل نهار، لعلى أعرف خبرا عن ابنى. وكان أولئك العملاء يهزءون بى ويصرفوننى من المكان بقسوة، فيدفعون بى بعيدا وهم يشتموننى بأقذع الألفاظ... ورغم هذا صبرتُ... وانتظرتُ، لعلى أتمكن من معرفة خبر عن ابنى.

وذات يوم كنتُ أقف أمام سجن كبير يسمى «سجن حدّ»، وهو أكبر سجون «جلال آباد»، وأتطلع بعيون متوسلة إلى أولئك العملاء، لعل الله يرقِّقَ قلوبهم، ويحسُّون بآلامى. وجلستُ على الأرض القرفصاء، وأمسكتُ فى يدى «سورة يس» الشريفة أتلوها بعينين دامعتين، وأتفُلُ ناحية السجن، وأنا أتلو الدعاء تلو الدعاء.

اقتربَ منى أحد البرشميين، وكان يتمَنْطَقُ بسلاحه، ويقضمُ تفاحة فى يده، فشدَّ قامتَه وصرخَ فى وجهى وهو يرفسنى بقدمه فى خصرى رفسة قوية:

ـ ماذا هناك أيتها المرأة القذرة، ماذا تنتظرين . . ؟ وما قصدك . . ؟!

التويتُ فى مكانى من شدة الألم، بينما ذلك البرشمى يرفسنى، ويلكمنى والزبَد يتطاير من فمه، ويصرخ بأعلى صوته :

ـ تكلمى . . . أعَنْهُ تبحثين . . ؟ . . . عن هذا الأعرج الملعون . . ؟ إنى أراك هنا يوميا، لكنى لم أكن أعرف أنك أم ذلك الأعرج . . . اسمعينى أيتها المرأة القذرة؛ لقد تسبب ابنك فى تلك الليلة، فى مصرع أخى وزوج أختى، وهو الآن فى قبضتى أسيمه سوء العذاب ليل نهار . . . لا تبحثى عنه بعد الآن . . .

وبمجرد أن سمعتُ هذا، أظْلَمَت عيناى، فلم أرَ شيئا . . . ولما رآنى عاجزة عن الرد، أمسكنى من شعرى وقال :

ـ تعالى إذَن . . . تعالى وشاهديه . . .

ثم جرَّنى من ذراعى .

كنت أمسك فى يدى سورة يس الشريفة، وأضع تحت ذراعى الصرّة التى أحضرتها إلى هداية الله . . . فانتزع الصرة وألقاها جانبا . كان يتصرف وكأن شيئا ما أصاب عقله . ثم رفع الصرة التى ألقاها، وأخذ يضحك وهو ممسك بذراعى ويدفعنى .

كانت رائحة الدم تنبعث من كل مكان . والرائحة الكريهة تغشى المكان كله . ثم دفعنى ذلك العميل إلى حجرة مظلمة . المكان تملؤه رائحة مُنَفِّرَة كدتُ أختنق منها . . . الحجرة رطبة . . . أرضيتها ترابية . لم أستطع أن أرى شيئا من شدة الظلام . . . يصدم أذنى صوت أنين يتردد من حين إلى آخر . كان الألم يلف كل أطرافى، ويوخز كُلْيَتى . أشعَلَ البرشمى - وكان يبدو عليه غضب الله - سراجا، وأمْسَكَه فى أحد أركان الحجرة، ثم لكَمَنى فى ظهرى قائلاً :

ـ انظرى أيتها الخائنة إلى القابع فى هذا الركن .

التفَتُّ بسرعة إلى حيث أشار، ونظرتُ، واقتربتُ من الركن تحت سيل من ركلات البرشمى، وأنا أبكى وأنتحب . . . كان هو . . . لقد عَرفْتُه . . . إنه ابنى . مررتُ بيدى على شفتيه المتورمتين من أثر الضرب المبرح، فبدأ يَئِنُّ . كلّمْتُه وأنا أبكى :

ـ ولدى . . . هداية الله . . . يا حبيبى ، وياروحى . . . افتح عينيك . . . أنا أمك انظر إلىَّ . . . افتح عينيك . . . افتحهما .

كان البرشمى جاثما فوق رأسى مثل الدب ، ويضحك . . . فتح الصرة التى فى يده ، وألقى بالملابس والمنشفة ، وبعض الأشياء التى وضَعْتُها بداخلها ، . . ألقاها على هداية الله وهو يهزأ قائلا :

ـ خذ . . إن أمك تحبك كثيرا ، انظر . . .

اسْوَدَّتْ الدنيا أمام عينىّ ، وملأ الطنين أذنىّ ، ثم فقدتُ وعيى . وعندما أفقتُ وجدتُ نفسى ملقاة فى أحد الشوارع . . . بدأ كل شىء يمر أمام عينى ببطء . تذكرتُ منظر المكان الرطب الذى رأيتُ ابنى راقدا فيه ، وزرقة الكدمات تعلو جسده . . . تذكرْتُ هذا ، فوضعْتُ يدىّ فوق أذنىّ ، لأصرخ بأعلى صوتى . . . وانخرطْتُ فى البكاء . لم يتقدم أحد لمساعدتى ، وطبيعى ألا يستطيع أحد مساعدتى ، وإلا تجرّع نفس العذاب .

* * *

مرت بضع ليال قضيتها فى بيت أحد أقاربنا فى «جلال آباد» . لا أتذكر كيف عثرْتُ على البيت ، لكنى رجعت بعد عدة أيام إلى السجن ، لكى أنتظر أمامه مرة أخرى .

هرع نحوى أحد الجند المناوبين ـ الذى صار يعرفنى الآن ، بعد رؤيته لى يوميا أمام باب السجن ـ وقال :

ـ أيتها الجدة ، ماذا جرى لكى تعودى ثانية ، ألا تخافين . . !

نظرتُ إليه بمرارة وقلت :

ـ كلا ، لا أخاف . فلا خوف إلا من الله وحده .

فرمقنى الجندى بنظرة حائرة ، فاغراً فاه ، ثم انحنى بجوارى برفق ، وهمس بصوت خفيض :

ـ أتعـرفـين يا أمى ذلك الرجل الذى ضـربك فى ذلك اليـوم . . . لقـد قُـتِل أثناء الهجوم الليلى الذى شنَّه المجاهدون الليلة الماضية .

نظرتُ إلى الجندى فى ذهول ، غير مصدقة ما يقول . . . وعلى الفور سجدتُ لله شاكرة ودعوته :

ـ الحمد لله رب العالمين . أجدنى يا ربى عاجزة عن شكرك حق الشكر . ساعدنى يا رب وانعم علىَّ بكريم عونك .

همس الجندى :

ـ أمى . . . اكتبى التماسا وقدميه إلى إدارة السجن ، فقد يطلقون سراح ابنك وتنتهى الصعاب التى تعترض طريقه . هيا اذهبى وادعِ لى ، لا تنسى . . .

أطلتُ النظر إلى الجندى وهوينصرف ، كنت مشدوهة . نهضتُ من مكانى واقتربتُ من الحارس الذى بباب السجن ، أرجوه :

ـ اكتب لى التماسا يا بنىّ ، وأكون لك من الداعين .

نظر الرجل إلىّ بغضب ، وقال :

ـ ادفعى لى أجر كتابته .

أخرجت خمسمائة (أفغانى) من النقود التى فى الحزام المربوط حول خصرى ، ودفعتها إليه قائلة :

ـ ها هى ذى النقود ، خذها واكتب .

رأى الرجل النقود . . . فلَمَعَتْ عيناه ، وأمسكَ بيده الورقة والقلم ، وبدأ يكتب ما أمليه . خمسة أيام وأنا أطوفُ بالتماسى من باب إلى باب ، وفى نهاية الأمر ، قالوا لى تعالى غدا .

انتظرت اليوم التالى بفارغ الصبر . صليتُ صلاة الصبح ، وابتهلتُ إلى الله ، ثم خرجتُ مسرعة . وعند باب السجن ، قالوا لى إن مديرَه فى انتظارى . مشيتُ وراء الحارس ، وأنا مفعمة بالانفعالات ، انفتح باب إحدى الحجرات . كان فى الحجرة

رجل نحيف، يجلس على رأس مائدة. عندما دخلنا؛ رفع الرجل رأسه وقال للحارس:

- الآن يمكنك أن تنصرف.

بقيت فى الحجرة وحدى، فأشار لى المدير بالجلوس، ثم قال:

- لقد مات ابنك بالأمس، على الرغم من كل محاولاتنا. فقد كان مريضا من قبل.

سمعتُ ما قاله، فنهضْتُ من مكانى وتقدمْتُ نحوه بلا وعى. فنهضَ المدير من مكانه، وأجلسنى وبدأ يتكلم. قال كلاما كثيرا، لم أسمع منه كلمة واحدة... ثم أغمى علىّ. وعندما أفقتُ، وجدتُ بضع أشخاص ينثرون الماء على وجهى. فاعتدلْتُ جالسة.

كان المدير مازال يجلس فى مكانه، معتدل المزاج، هادئا... ثم قال:

- اسمعينى يا أمى... يجب أن تشكرينى لأننى أخبرتك بما جرى لابنك... يكفى أنك علَمْت به. فآلاف الناس يترددون على هذا المكان كل يوم، بأمل أن يعرفوا شيئا عن مكانَ ذويهم المحبوسين... وقد أخبرناك بالحقيقة لأننا أشفقنا عليك... ورغم هذا، لم تشكرينى، بل بكَيْتى... أيصِحُ هذا..؟!

نعم، كانوا ظالمين إلى هذا الحد. أدعو الله أن يحاسبهم، وليكن حسابه لهم قريبا.

* * *

مرّت ساعات وأنا فى مكانى... أبكى وأتفجّع... وأخيرا قلت للمدير:

- أيها النذل الوضيع، ستلقَى ذات يوم - بإذن الله - جزاء سخريتك منّى. لكن بقى شىء أخير أود أن أسأل عنه... هل رأيت ابنى..؟ أم...

ولم أكد أفرغُ من سؤالى، حتى قطَبَ المدير حاجبيه، وصاح:

ـ اسمعينى أيتها الأم . أنت امرأة جاهلة ، لاتُقَدِّرين قيمة المعروف الذى أسديناه لك . ولو أنك قَدَّرْته ، ما تصرفت بهذه الطريقة . . . اسمعي ، لقد مات ابنك بالأمس فقط ، وجَسَده مازال عَندنا . . . إذا كنت تودين تَسلُّمه ، نُعْطيه لك ، لكن . . . هذا عمل صعب ، ونحن فى هذه الأعمال نُعرِّض أنفسنا للخطَر . لذا ، نريد منك مبلغ خمسين ألف (أفغانى) مقابل تسليمك جثمان ابنك . . . فكِّرى فى الأمر جيداً ، ولا تظنى أننى آخذ هذه النقود لنفسى ، إنما أدفعها رشوة لبعض الأشخاص ، لكى يُخرجوا الجثمان من السجن . وأنا أوضِّح لك هذا ، لأننى تألمتُ لحالك . . . يمكننا أن نَسلمك جثمان ابنك غدا . . . مساءً .

قال كل هذا وهو يطردنى . خرجتُ من السجن . كان الجوُّ مظلما ، وأنا عاجزةٌ عن المشى . ياحبيبى . . . يافلذة كبدى . لقد استُشهد ابنى الوحيد .

كلمات ابنى تَرنّ فى أذنىَّ :

ـ أمى . . . لو وقعتُ فى يد الكفار . . . لو عذَّبونى . . . ثم قتلونى ، لانتهَتْ آلامى . ولافرق عندى إن مَثَّلُوا بجسدى أو ألقوه للكلاب بعد ذلك .

آه ياولدى . . . ياحبيبى . . . كيف . . ؟ تُرى ماذا أقول لزوجتك . . ؟؟ يجب أن أشترى جثمان ابنى من قاتليه . بكيتُ الليل بطوله ، وفكّرتُ فيه ، كيف كان يقبل نحوى جاريًا بساقه الواحدة ، ويقول :

ـ أمى ، المجاهدون قادمون . . . استعدى . عندما أستشهد ياأمى ، إيّاك أن تبكى من بعدى ، وإلا تفسد شهادتى ، ولا يمكننى أن أتشفّع لك ، إيّاك يا أمى ، احذرى .

كان أقاربنا الذين أقمت معهم فى بيوتهم ، يبكون مثلى وينتحبون ، وفى الوقت نفسه يفكرون كيف سينقلون جثمان هداية الله مساء غد من السجن إلى القرية . لاتوجد فى الدنيا أمّ يمكن أن تتحمّل ، والله لاتستطيع أنّ تتحمّل ، عندما تسمعُ خبر استشهاد ابنها . . . إنه فلذة كبدى ، إنه قلبى . . . إنه دمى الذى يجرى فى عروقى . . . ياربى ، تُرى ؛ كيف سأعيش بدونه . . ! ثم ما مصير أمين الله وحميدالله ، أفكر فى هذا بينما كلمات ابنى ترنُّ فى أذُنَىَّ :

ـ أستودعك الله يا أمي وإيّاهما بعد نفسي .

وما كان يردده دائما :

ـ أمي . . . في اليوم الذي تتحرر فيه بلادنا أفغانستان ، تَصَدّقي بأكبر وأجمل بساتيننا ، إلى أفقر من تعرفين ، صَدَقَة نرجو بها شكر الله .

اقترضتُ مبلغ الخمسين ألفًا من أقاربنا ، واصطَحَبْتُ ثلاثة من رجالنا ، وتوجهنا إلى السجن بعد صلاة العشاء لاستلام جثمان ابني . كان المدير ينتظرني . . . أذنَ بدخولي أنا فقط ، فدخلتُ . بدا هو كما لو كان مشغولا بأشياء على المائدة . . . ثم رفع رأسه ، وترك الأوراق التي في يده ، ورمقني قائلا :

ـ أنت . . ؟ كل شيء جاهز . سنسلمك جثّة ابنك . إنها على النقّالة في العربة نصف النقل التي بالخارج ، وستحملها إلى بيتك . لكن لابد من السرعة . . . ممنوع التجوّل كثيرا بالخارج . . . كما أن حَظْرَ التجوّل مفروض على الشوارع ليلا .

قال هذا وعيناه مغروستان في يديّ . أدركتُ ما يرمي إليه : النقود . فنظرتُ إليه باشمئزاز . . . لم يكترث بنظراتي المشمئزة ، أو بلَوْعة الحزن التي تعتصرني . كانت عيناه مصوّبتين على يديّ ، كأنه ذئب جائع . كانَ يرتعش ارتعاشة الطمع . وبدأ يفقد صبْرَه شيئا فشيئا ، ، وغَلَبَتْهُ خسته ، فلم يُطق صبرا ، وانطلقَ يقول :

ـ هيا اسرعي . . . لم يعد في قوس الصبر منزع .

انطلقَت الكلمات من حلقه ، في طمع وانفعال ، وهَمْس . فمددت إليه الخمسين ألفا ، ملفوفة في قطعة من قماش ، فخطفها من يدى ، وفتحها بيديه المرتعشتين ، وأخَذَ يَعدّ النقود بلهفة وسرعة . . ولما تأكد أنها المبلغ المطلوب ، قال :

ـ يمكنك الآن أن تنصرفي .

وقفتُ بصعوبة ، والتفتُّ إليه للمرة الأخيرة ، وقلت :

ـ إنّ يوم الحشر لقريب ، وهو يوم حسابنا الحقيقي معك . أعجز عن تصوُّر مدى العذاب الذي ستلقاه جزاءً وفاقاً لبيعك أجساد الشهداء إلى أهلهم . . !! أتدرك أنت عاقبَتَكْ . . ؟ ! ربما قتلتَ ابني لتتاجر بجثته ، فتبيعها ، وتقبض الثمن ، وتنسى

أن للأمهات آهاتا وقلوبا . . . أرجو الله أن ترتد عليك كل روبية من هذه النقود، عذابا وجحيما، وأن يُذيقك الله فى الدنيا خمسين ألف عذاب.

وبينما أنا مسترسلة فى الكلام، قاطعنى قائلا :

- انصرفى. انصرفى ولا تزيدى كلمة واحدة. لابد أن تعرفى أننا سَنُثَابُ على عملنا هذا ثوابا كبيرا. يمكنك أن تأخذى نقودك وتذهبى، هذا إذا كنتِ لا تريدين جثمان ابنك.

سمعتُ قوله هذا، وانصرفتُ.

* * *

كانت ساقاى تلتفان حول بعضهما من شدّة الحزن والتعب، ويكاد قلبى يخرج من حلقى من فرط الانفعال. وما أن وقعَتْ عيناى على النقّالة خلف العربة، حتى كاد أن يُغشى علىّ. فأمسكتُ بحافة العربة كى لاأسقط على الأرض. كان الجثمان مغطى بغطاء أبيض، وقد ظهرتْ منه قدما ابنى المتورمتين الداميتين. . . رأيتهما فأحسستُ وكأننى طُعِنتُ فى قلبى. وفقدتُ وعيى وأنا أصرخُ وأُوَلْوِلُ وأنتزعُ شعر رأسى.

اقترب بعض أقاربى، ورفعوا الجثمان من على الأرض، وحاولوا أن يضعوه عند الطرف الأمامى من العربة، وكنت أثناء هذا أتفجّع بأنين :

- كلا، كلا، يجب أن أبقى إلى جواره، أريد أن تَشْبَع عيناى منه.

عندئذ اقترب منّى شيخ كبير طاعن فى السن، ذولحية بيضاء، وقال :

- اصبرى، إيَّاك والبكاء. انظرى إلىّ واسمعينى. . . منذ أعوام ثلاثة كاملة، وأنا أتنقَّل من باب إلى باب بحثًا عن ابنى وحفيدى اللذين ألقىَ القبض عليهما ومعهما أسلحتهما. أنا راض أن أجدهما، حتى لو كانا جثتين هامدتين. يكفى أن أعرف خبرًا عنهما. فمنذ أعوام وأمُّه وزوجته فى انتظارهما. . . هيّا كُفِّى عن البكاء، فالبكاء حرام، أشكرى الله، وادعى لابنك أن يتغمده الله برحمته، ويلهمك الصبر والسلوان لفراقه.

كانت كلمات هذا الرجل عزاء لى . فكشفتُ الغطاء عن وجه ابنى . رأيته مقطَّع الأوصال . وجهه مكدوم وكذلك عيناه . شفتاه متفجِّرتان . الحروق تبدو واضحة فى يديه وقدميه . ملابسه غارقة فى الدماء . لحيته مشعثة وغير منتظمة . ورغم هذا كله كان النور يتألق من وجهه . ولم أقْوَ على الاحتمال . فقبَّلْتُه فى جبينه . وكنت هذه المرة أبكى فى صمت . . . وأفكِّر ؛ كيف يمكن إتمام كل شىء فى أقصر وقت ممكن . . ؟ . كان قلبى يقطُر دما ، لكن علىّ أن أصبر ، وأدعو الله شاكرةً .

* * *

وصلنا إلى البيت . استقبلتنى النساء معانقات باكيات . وفى اليوم التالى ، وضعنا الجثمان على شاحنة ، واجتمع المجاهدون . لم تكن زوجته تتوقَّع أبدا شيئا كهذا ، وما أن وقَعَتْ عيناها على الجثمان ، حتى هاجت وبكت ، كان أمين الله ، وحميد الله ، مازالا صغيرين ؛ فلم يُدركا شيئا مما جرى . وبعد أن واريناه الثرى ، صار كل تفكيرى منحصر فى ولَدَيْه ، أمَين الله وحميد الله . أصبحتُ المسئولة عن تربيتهما .

انهار البيت . . . وانتهى كل شىء . ومرَّت بعد ذلك بضعة شهور . وذات يوم ، جاءتنى زوجة ابنى تقول :

ـ أريد العودة إلى بيتنا ، هذا بالطبع إذا أذنْتِ لى .

فأذنتُ لها بالذهاب . ومرَّ عام بعد ذهابها ، مرَّ العام بسرعة . ثم جاء والدها ـ وكنت آنذاك فى الجبل ومعى حفيدى الصغير ـ وقال لى :

ـ تعرفين أن هداية الله قد استشهد . وابنتى شابة . وأحد أقاربنا يطلبها للزواج . وقد عزَمْتُ على تزويجها له ، لكنى أودُّ أن أعرف ؛ هل أذن لها هداية الله قبل استشهاده ، أن تتزوج من بعده ، أم لا . . ؟ إنه لم يتكلم فىَ هذا مع ابنتى ، وربما حدَّثك فى هذا الأمر . وهذا سبب مجيئى الآن بشكل أو بآخر .

وكأن أحدهم غرس سكينا فى قلبى . معنى هذا أن كل ما سمعْتُه كان صحيحا . وواقع الأمر أن ما سأقوله لن يؤثر فيه بأى شكل من الأشكال . . . لقد كان المجاهدون يحبون هداية الله حبا جمّا . ربما فكَّر فى أننى إذا لم أوافق على ما جاء

بشأنه، قد أسَبِّبُ له حرجا وخوفا من المجاهدين. بَدَوْتُ وكأن لسانى قد انعقد. . . كان قلبى يحترق. وبعد تريُّث، قلتُ له:

- نعم لقد قال لى ابنى قبل استشهاده، يا أمى، ائْذَنى لزوجتى أن تتزوج من بعدى؛ هذا إذا شاءَت. فما من شيء يهمنى بعد أن أبلغ مرتبة الشهادة. وإن كنت أظن أنها ستبقى وفيَّة ولن تتزوج بعدى.

فابتهجَ لقولى هذا، وقال بانفعال:

- أرجو ألا يضيق صدرك لزواجها. لك أن تبقى معها إذا شئت، وإلاَّ فإننا سنرسلُ لك نفقات المعيشة. كما أن حميد الله وأمين الله سيظلان معَك؛ هذا إذا رغبْتِ.

وهكذا عبَّر عن عدم تَقَبُّله للولدين. فلم أطق صبرا، وقلتُ له:

- من تلقاء نفسى، أرْفُضُ أن أتركهما لك. هيا، صاحَبَتْكَ السلامة. أرْسِل حفيدى الثانى، والله خيرٌ حافظا.

انصرَفَ، ثم أرسَلَ أمين الله بعد أسبوع. احتضَنْتُ حفيدىَّ بحنان، وتضرعْتُ إلى الله بدمع عينىّ أن يحفظهما.

مضت الأيام، والأسابيع، والشهور. وأنا فى الجبل مع المجاهدين. أصبحت عبئا عليهم، أتَنَقّل معهم حيثما ذهبوا. . . لم يبق فى القرية أحد؛ ذلك لأن القنابل كانت تنهال عليها كل يوم. ولم يبق فى الجبل عائلة سواى أنا وحفيدَىّ. . . كنت مشتَّتَة. أحيانا يستخدم الروس الغاز السام فى الجبال، ويصبُّون حمَمَ قنابلهم على كل حَجَر فى الجبل. كان المجاهدون يشعرون بالمسئولية نحونا، كَما أن كِبَر سنّى يُعجزنىّ عن التنقل بحفيدىّ معًا. لهذا كنت أظن أننا سنسقط فى يد الرَوس إنْ عاجِلا أو آجلا.

صارت حياة الجبل شاقة بالنسبة لى. كنتُ أخشى أن أتسَبَّب وحفيداى فى إلحاق أدنى أذى بالمجاهدين. وذات يوم قلت لقائد الجبهة:

- يا ولدى، يصعب علىّ الآن البقاء معكم فى الجبل، وأعرف أننى أصبحتُ عبئا

عليكم. وأخشى إن نزلتُ من الجبل، أن يؤذى البرشميون حفيدىّ. . . حفظك الله، فقد أوليتنا عناية كبيرة، لكنى الآن أريدُ الهجرة إلى باكستان. هذا، إذا أذنتَ لى. . . وقد سمعتُ أن مجموعة من المجاهدين ستذهب إلى «بيشاور» بَعد أسبوع. . . أرْسِلْنا معهم إذا كان ذلك ممكننا، ربما نكون عبئا عليكم لكن. . .

فقاطعنى القائد:

ـ مطلقا يا أمى. . . أتودين فراقنا، . . . إلى أين. . ؟! لاتقولى كلمة عبء، فأنتم معنا إذا أكلنا أوشربنا. . . وإذا استشهدنا، نكون أيضا معًا. . . وإذا انتصرنا، انتصرنا معًا. كيف تُبعدين عنى أمين الله وحميد الله. . !! إلا إذا كنت لاتعتبرينني بمثابة ابنك. . !

قال هذا واغْرَوْرَقَتْ عيناه بالدموع. أما أنا فكنتُ أبكى وأ لِحُّ عليه أن يأذَنَ لنا بالذهاب إلى باكستان. فأراد أن يطمئن علينا، ومع مَنْ سنقيمُ فى باكستان، وكيف سنعيش هناك، ولم يود أن يتركنا وهو يفكر فى المتاعب التى سنواجهها. . . وأخيرا قال:

ـ تقولين يا أمى أنك تريدين الذهاب إلى باكستان، حسنٌ، اذهبى ولا تنسينا من دعائك، إن شاء الله نلتقى مرة أخرى، عندما تتحرر أفغانستاننا.

وأذن لنا القائد بالهجرة، وقلبه ينفطر حزنًا. وفى اليوم التالى، جمع من المجاهدين مبلغا من المال وقدمه لنا لمجابهة نفقات الطريق، فمنهم من قدَّم عشراً، ومن قدّم عشرين أو ثلاثين أفغانيا.

كان علىَّ أن أغادر قريتى الحبيبة بعد أسبوع واحد. أ أغادرُ قريتى، وبيتى، وطعامى. . . كيف لى أن أغيب عن كل هذا. . ؟ كان أكثر ما يزعجنى، تُرى؛ هل سأستطيع زيارة قبر ابنى هداية الله مرة ثانية. . ؟

* * *

قبل الهجرة إلى باكستان، كنت أنزلُ كل يوم إلى القرية، فأزورُ قبر ابنى وأدعو له، وأجلسُ فوق تراب بيتنا الذى أمسى خرابا، فأبكى الساعات الطوال. . . لقد صارت القرية خاوية على عروشها، لا أثر فيها للحياة. وكنت أقطعُ الوقت بجوار قبر ابنى. . . وأحيانا أصطحب أمين الله وحميد الله لزيارة قبر والدهما. . . كان أمين الله يسألنى:

ـ جدتى، أهنا يرقد والدى. . ؟ أراك تبكين كثيرا. . . لاتبكى ياجدتى، فعندما أكبر سوف أشترى لك كَل شىء؛ الحلَوى والبالونات والسترات والملابس. . . وعندئذ سَيَسْعَدُ والدى كثيرا. . . أليس كذلك يا جدتى الحبيبة. . ؟. . لقد قال القائد أنه سيعطينى بنَدقية والدى عندما أكبر. . . جدتى، إننى سآكل كل طعام، فأنا أريد أن أكبر بسرعة ويصبح لى شارب ولحية، وأقتل الأعداء، تماما مثلما يفعل القائد فى الجبهة، أليس كذلك يا جدتى. . ؟!

وبعد أسبوع غادَرْتُ الجبهة وسط دموع عينىَّ. اتخذتُ طريقى وحفيدَىَّ تاركة قلبى فى قريتى عند قبر ابنى.

قرر المجاهدون أن نتحرك إلى باكستان عبر طريق «باراتشنار». كان صعب علىّ وأنا امرأة عجوز أن أقطع طريقا طويلا كهذا، سيرا علىَ الأقدام. الحقيقة أن المجاهدين، سلَّمهم الله، كانوا يحملون حفيدَىَّ، بل إنهم لم يتركوا لى الفرصة لأحملهما. كان أمين الله دائم التساؤل؛ إلى أين نحن ذاهبون. . ؟. وكان المجاهدون يوضحون له أننا ذاهبون إلى باكستان. ثم بدأ يسأل أسئلة جديدة، وكانت أسئلته تضحكهم. وخلال أحد تساؤلاته وهو بين ذراعَىْ أحد المجاهدين، أدار وجهه ناحيتى، وسأل بصوت عال:

ـ جدتى، جدتى، هل ذهب والدى أيضا إلى باكستان. . ؟. . . آه. . . بماذا نجيب. . ؟ لم نكن ندرى.

* * *

الطُرُق. . . الطرق. . . ليتها الطرق الطويلة التى لا تعرف النهاية أبدا. . . أيتها الجبال المنحدرة التى يصعب اجتيازها. . . من يدرى هِجْرَةُ كم ألف من البشر

شاهدتها، لابد أنك ستشهدين عودتهم ذات يوم، يملؤهم شوق العودة إلى بلادهمَ، وقد أتَمَّ الله نوره (إن شاء الله).

* * *

توقفنا في المكان الذى يسميه المجاهدون « الميدان الأبيض». بدأ دخول الليل. جلستُ على الأرض وسندتُ ظهرى على أحد الأحمال، ناظرةً إلى حفيدَيَّ الجالسَين أمامى على الأرض، يأكلان بشهية خُبْزَ التنور الجاف.

جلسنا نستريح فى مكان عبارة عن قمة جبل. وكان الهواء قارسًا، شديد البرودة. أوقَدَ المجاهدون نارًا أمامى مباشرة؛ فاتجه حفيداى ناحية النار وهما يتضاحكان، بينما قام أحد المجاهدين بوضع الحجارة التى جمعها حول النار، ووضعَ فوقها وعاءً، ثم سكبَ فيه كل الزيت الذى فى الكيس البلاستيك، وبدأ فى تقطيع حبّات الطماطم - التى فى قاع الكيس - على حافة الوعاء. . . فنَهَضْتُ من مكانى، ودنوتُ منه أسأله:

- هات يابنى، أنا أقطِّعه. . . ماذا تطبخون. . ؟.

ابتسم المجاهد، ومد إلى السكين والطماطم التى فى يده قائلا:

- تفضلى يا أمى، قلنا نحمر الطماطم قليلا فى الزيت، ثم نعمل شيئا مثل الشوربة.

قال هذا ثم ابتعد. . .

قطّعْتُ الطماطم فى الوعاء، ثم رفَعْتُه على النار، بعد أن وضَعْتُ عليه الملح والفلفل الأخضر، واصْطَفَّ المجاهدون لصلاة العشاء. . . كانوا يصلون بعيدا عنى بمسافة كبيرة، وصلّيتُ أنا أيضا، ثم جلستُ بجوار النار، وغفوتُ. خُيِّل إلىَّ أننى أسمع حديثهم خلفى، فتَلفّتُّ، فلم أرَ أحدًا. قلتُ لنفسى: ربما أخطأتُ السمع. . . سمعتُ هذه المرة، بكاء طفل، وكان هناك من يسكتُونه بالقوة. . . انفعلتُ، فحفيداى يغطان فى النوم، وليس هناك أطفال آخرونَ. أثناء ذلك كان المجاهدون يتقدمون ناحيتى، ويواصلون حديثهم. . فوقفتُ وأنا أتَلَفَّتُ حولى فى حيرة، صاح بى القائد:

ـ أمى، هل نضج حساؤنا . . ؟ يحسن أن نشربه ساخنا .

أجبته :

ـ جاهز يا بنى . . وهنا أيضا من يستعدون حولنا .

نظر المجاهدون والدهشة تعلو وجوههم، فأشرتُ بيدى إلى النتوء خلف المكان الذى أقف فيه، وقلتُ :

ـ أسمع أصواتا تأتى من هذه الناحية .

أشار القائد بيده أن أصمت، وأشار إلى المجاهدين بالكلاشينكوف التى فى يده، وأومأ برأسه كأنه يقول لهم : اتبعونى . وتقدّم ببطء ناحية النتوء الذى أشرتُ إليه . كان المجاهدون متحمسين، بينما ذهبتُ أنا ناحية حفيدى، تُرى، من هناك . . ؟ صاح القائد قائلا :

ـ مكانَك حذار أن تتحرك . . . سأضرب .

أمْسَك اثنان من المجاهدين برجل من ياقة ثوبه، وانهالا عليه ضربا . . . يا إلهى، إنه روسىّ . كان القائد يضربه بكعب البندقية، بينما الروسىّ ينكمش على الأرض، ومجاهد آخر يتساءل :

ـ شىء محيِّر . . . ما الذى أتى بهذا الروسىّ إلى هنا . . ؟!

فى هذه الأثناء رأينا امرأة تُقْبل مسرعة من خلف الربوة، وتلْقى بنفسها فوق الرجل الممدّد على الأرض، وهى تصرخ . . . تملكتنا الدهشة . . . كانت المرأة تبكى، وفى نفس الوقت تصيح :

ـ أتضربونه . أستحلفكم بالله ألا تضربوه . نحن أيضا مجاهدون . رفعَتْ المرأة رأسها تَتَلَفَّتُ حولها . كانت صغيرة السن، وتشبه أهل الجنوب عندنا . . . نظَرَتْ إلينا بعينيها الدامعتين، ثم أخَذَتْ تهز الرجل الممدد على الأرض، وهى تبكى وتردد :

ـ عبد الأحد، عبد الأحد . . . ماذا أصابك . . ؟

نظر القائد إلى المرأة فى دهشة، بينما رفع أحد المجاهدين وجه الرجل الممدد على الأرض. . كان فتى شابا فى حوالى السابعة عشرة، وجهه غارقا فى الدماء، وشعره الأصفر مخضب بالدماء، كان يشبه المرأة التى معه. أطلَقَت المرأة صرخة أخرى وهى تبكى وتصيح:

ـ قتلتموه. . . قتلتموه أيها الظالمون! لقد قتلتم رجلا من أهلكم. . . هيا اغربوا عن وجهى. . هيا اذهبوا.

وملأ المكان صوتُ بكاء طفل، فانْطَلَقَت المرأة من مكانها كالسهم، وجَرَتْ ناحية الصوت القادم من خلف الربوة، وتبعها القائد واثنان من المجاهدين يستوقفونها. وجريتُ أنا أيضا وراءهم، بينما المرأة تبكى وتصيح:

ـ اتركونا بالله عليكم، نحن لم نقترفْ ذنبا.

وهناك. . . خلف الربوة الترابية، كان ثلاثة أطفال يبكون فى صوت واحد، ويرتعشون من شدة البرد. أحدهم صبى فى الثامنة من عمره، والآخر طفلة صغيرة فى السادسة، وطفل آخر صغير فى قماطه، يبكى بصوت عال. هدّأ القائد من روعها بقوله:

ـ لا تخافى. . . فنحن مجاهدون. لكن ما الذى أتى بكم إلى قمة هذا الجبل. . ؟! ومن يكون هذا الروسىّ؟ اقتَرَبْتُ من المرأة، وجَثَوْتُ إلى جوارها أطَمْئِنُها:

ـ هدِّئى من رَوعك يا بنيتى. . . تمالكى نفسك فنحن لسنا غرباء. هيا انهضى. أقَتل هؤلاء الأطفال تريدين. . ! ! . . هيا انهضى واطمئنى. أما هذا الشاب فيبدو أنه مغشى عليه وسيفيق الآن. . . هيا انهضى.

حدَّقَتْ فينا المرأة وعيناها تقدحان شرارا، بينما اصطَحَبْتُ الطفلين. . . ياربى. . . ماهذا. . ! ! كأنهما تجمّدا من قسوة البرد. كانا يرتجفان ويبكيان. التَفَتُّ إلى القائد أنبِّهُهُ أن الطفلين على وشك أن يموتا من شدّة البرد. أفاق القائد من دهشة الموقف، واقتربَ من المرأة قائلا:

ـ قلنا لك هيـا انهـضى. أتودين قـتل هؤلاء الأطفـال. . !! هيـا انهـضى. نحن لانعرف من يكـون هذا الفتى، ولاماذا أصابه. لكن مـا ذنب هؤلاء الأطفـال. . ؟! هيا انهضى.

كانت المرأة تحدِّق فى القائد حائرة، مُطْبِقَة بذراعيها على طفلها الصغير. ثم وَقَفَتْ. بينما احتضن اثنان من المجاهدين طَفليها الآخرين، ورجعنا إلى مكاننا، حيث كان بقية المجاهدين فى انتظارنا، بينما الفتى مازال مغشيا عليه. فصاح القائد:

ـ هيا اشعلوا النار بسرعة، واغسلوا وجه الفتى بالماء الساخن.

أجْلَسْنا المرأة والأطفال على مقربة من دفء النار، بينما المرأة مستمرة فى نحيبها الصامت، والأطفال يرتجفون من شدة البرد. جَثَوْتُ بجوار الفتى، انَظِّفُ وجهه من آثار الدماء. وساعدنى أحد المجاهدين فى هذا. أخرج القائد بعض المتاع، واقتربَ من الفتى. فأخَذْتُ منه بطانية وفَرَشْتُها على الأرض، وأرقدوا الفتى بجوار النار، ثم حقن القائد ذراع الفتى بدواء، فتلوى من الألم. فشكرتُ الله أنه مازال حيا. بدأ الفتى يسترد وعيه، بينما المجاهدون مستمرون فى تغذية النار، والمرأة الشابة تتابع مايدور أمامها، بعينيها الدامعتين. وبعد نصف ساعة، كان الفتى قد استرد وعيه تمامًا، وبدأ يتلفت وينظر إلى الجالسين حوله فى صمت. . . آه ياربى، إنه يشبه الروس تماما. ثم انطلق صوت القائد:

ـ أيتها الجدة، بَرد حساؤنا. . . ألا أحضرته لنشربه سويا.

فرفعْتُ الإناء على النار حتى سخن، ثم وزَّعْتُ ما فيه على المجاهدين. كنا خمسة أو ستة أشخاص حول طبق واحد. قطَّعنا خبز التنور البارد، ووضعناه فى حساء الطماطم. . . وبدأنا نأكل. وَضَعْنا طبق حساء أمام الفتى، وساعده أحد المجاهدين فى تناوله، فقد كان الفتى عاجزا عن تحريك يده.

جَلَسَتْ الشابة وطفلاها ينظرون إلى وعاء الشوربة الذى أمامهم، دون أن يَقْرَبوه، فقلتُ للمرأة:

ـ هيا يا ابنتى، اشربى الحساء وهو ساخن، فأنت متعبة مثلنا.

فأقبلَت المرأة والأطفال على طبق الحساء، وبين طرفة عين وانتباهتها، صار الطبق فارغًا تماما. أدركتُ أن الأطفال مازالوا جائعين، فقدَّمْتُ لهم نصيبى من الحساء، وقد أصبحتُ بالفعل لا أريد أن أشرب منه. فشربوا هذا أيضا، ولعقوا الطبق. كان القائد يرقبهم. ولما لاحظ أنهم ما زالوا جائعين، قدّم لهم الطبق الذى أمامه هو ورفاقه، فأرادت الأم أن تعترض وهى خجلى بقولها:

- كفى، فقد شبعنا، بينما أنتم جائعون.

ورغم اعتراضها، كانت جائعة. فشَربَتْ من الحساء مرة أخرى، وكان الفتى لايقل جوعا عن المرأة، فقدمنا له الحساء المتَبقى فى الإناء.

* * *

انتهى الطعام، والتف الجميع حول النار، واستغرق كل واحد فيما يشغل فكره. كان الفتى ملفوفا فى البطانية، وينظر ناحية النار مستغرقا... فسأله القائد:

- تُرى، كيف حالك الآن..؟

رفع الفتى رأسه وقال:

- الحمد لله يا سيدى القائد.

فسأله القائد:

- أما وقد استرحتَ الآن... ألا توضح لنا ما الذى أتى بكم إلى هنا؟ ومن أين حصلْتَ على هذا المعطف العسكرى الروسى الذى ترتديه..؟!

امتقع وجه الفتى من الخجل... وأطرق برأسه، وبدا مستغرقا فى التفكير وهو ينظر ناحية النار، ثم بدأ يحكى حكايته، بينما المرأة تبكى بكاءً مكتوما، وكان الأطفال الثلاثة قد استغرقوا فى النوم منذ حين.

* * *

قصة الفتى

نحن من بلدة « مَزار شَريف » . أجدادنا في الأصل مجاهدون من « بُخارى » . وأنتم غير مخطئين في تشبيهي بالروس ، لأني قريب الشبه منهم بالفعل . عندما ضرب الروس قريتنا بالقنابل ، صعدنا إلى الجبل ، وأقمنا فيه مدة سنة كاملة . ثم نزلنا إلى القرية وجررناها من الروس . أمّا هذه المرأة الشابة ، فهي أختي الكبيرة . . . زوجها مجاهد في جبهة مزار شريف المركزية .

دمَّر الروس قريتنا أثناء غارتهم الثانية عليها . . . وساووها بالأرض . وفقدْتُ في الغارة كل أفراد عائلتي أمي ، وأبي ، وإخوتي ، وأخواتي ، وأقرب أقاربي ، كلهم استشهدوا ، ولم يبق على قيد الحياة سوى أختي هذه وأطفالها الثلاثة ، فهربنا إلى الجبل تحت جُنح الظلام . . . كذلك لم ينجُ من القرية كلها سوى عشرين شخصًا فقط . وكان المجاهدون محزونين ، فقد فقدوا عائلاتهم أثناء الغارة . . . لهذا بكى زوج أختي عندما رآنا أحياء أمامه عقب الغارة . وبقينا معه في الجبهة المركزية لمدة شهر . . . بعده قال لي :

ـ ياعبد الأحد ، يجب أن تذهب أنت وأختك والأولاد إلى باكستان . إننا نخشى أن تقعوا في أسر الروس إذا بقيتم هنا ، أمّا نحن ، فلا خوف علينا لأن هذه هي حياتنا . . . وقد اعتدناها . وجودكم هنا عبء علينا . أيُرضيكم أن تكونوا السبب في أن يُدمِّر الروس هذه الجبهة . . !!

ثم اقترض من زملائه في الجبهة نقودا ، أعطاها لنا لنسافر إلى باكستان .

سافرنا والخوف يملؤنا . . . فلم نكن قد غادرنا «مَزَار شَريف» من قبل أبدا . لم نكن نريد فراق بلادنا . . . لكننا رضخنا لإصرار زوج أختي . وخرجنا قاصدين باكستان رغما عنّا ، والدموع تنهمر من عيوننا . خرجت مع أختي وأبنائها الثلاثة . . . بمفردنا . كان لابد من دفع رشوة لمن بيده أمر الحدود عند «طورخَم» . كان زوج أختي قد رسم لنا خط السير في ورقة ، وأفهمني كيف أتصرَّف . كان كل متاعنا عبارة عن صرّتين . وبعد يومين وصلنا إلى «كابول» بالعربات التي سنهرب

عليها إلى باكستان . وأقمنا ببيت فى العنوان الذى وضّحه لى زوج أختى . وفى اليوم التالى ، استأنفنا سيرنا ، وركبنا عربات الهروب مرة أخرى ، وساعدنا فى ذلك صاحب البيت الذى أقمنا عنده تلك الليلة . ووصلنا إلى مدينة «جلال آباد » . وعند «طورخَم» دفعنا رشوة لذلك الخائن الذى سيساعدنا فى عبور الحدود . لكنه سلّمنا إلى الروس ، الذين ألقوا بنا ؛ أنا وأختى وأطفالها الثلاثة ، فى السجن . واستمروا فى ضربى والتنكيل بى ليعرفوا من أين نحن قادمون . . . وما هى وجهتنا . . . ومامقصدنا . ثم ألقوا بنا فى عربة روسية مصفحة ليعيدونا إلى كابول مرة أخرى ، بصحبة جندى روسى . وكان ذلك الروسى يتفاهم معنا بالإشارة ، فأشار يسألنا إن كان معنا نقود ، فأجبناه أن ليس معنا ، فقال وهو يضحك :

ـ نقود . . . نقود . . . النقود ثمنا لحريتكم .

وأشار بيده أنه سيطلق سراحنا .

نظرَت إلىّ أختى فى دهشة ، وكانت آثار التعذيب الشديد الذى تعرَّضت له بادية عليها ، ثم قالت :

ـ إنها فرصتنا الأخيرة للهرب من أيدى الروس . فلنتوكل على الله العلى العظيم ، ونعطيه الذهب البُخارى ألذى أخبئه ؛ ذلك الذهب الذى أعطته لى أمى رحمة الله عليها عند زواجى . إننا سنفقده فى نهاية الأمر ، سواء أعطيناه له أو لم نُعْطه .

تملكتنى الدهشة وسألتها :

ـ ألَمْ يأخذه منك أولئك الذين ضربوك فى السجن . . ؟!

قالت :

ـ لا ، لأننى كنت قد خبأته داخل بطانة ملابسى ,خيَّطتُ عليه . لقد أخذوا النقود التى كانت معى ، لكنهم لم يعرفوا شيئا عن الذهب ، إنه يساوى مبلغا كبيرا ، فلندفع ذلك الروسى قطعتين من الذهب البخارى ، والله فى عوننا .

وبهدوء فتَقَتْ بطانة ملابسها ، وأمسكَت بقطعتين من الذهب البُخارى ، وأعطتهما لى ، وربَطَت باقى الذهب فى غطائها . وهمستُ بانفعال إلى ذلك الروسى الغافل فرفع رأسه ونظر إلىّ ، فكلَّمته وأنا أتصورأنه يفهم كلامى :

ـ اسمع ، خذ هذا الذهب ، واوفِ بكلمتك . لكن حذار أن تخدعنا ، لأننا عندئذ سنبلغ الأمر إلى قيادتك .

حدّقَ الروسى بغضب ومدَّ يده نحوى قائلا :

ـ هات النقود .

مددت له القطعتين الذهبيتين البُخاريتين ، فأخذهما وبدأ يُقلِّبهما بين يديه ، وعلامة الدهشة تعلو وجهه ، وقد اتسعت عيناه بأقصى اتساعها من فرط الدهشة . تارة ينظر إلى الذهب ، وتارة إلينا ، وبدون وعى نطق بكلمة «بُخارى» . فقلت :

ـ نعم إنه ذهب بُخارى ، معنى هذا أنك تعرفه .

ارتسمت على وجهه علامات الفرح ، ولا أدرى كم من الوقت مضى بعد هذا . ثم وقفت قافلة السيارات الروسية . كنت وأختى قد استغرقنا التفكير والحزن يملؤنا . نتذكر ، كم بكينا . وكم جُعْنا وتعذبنا فى تلك الأيام . كان الأطفال يبكون من فرط الجوع والتعب .

وفى فترة ، غادر الروسى العربة ، وتركنا بمفردنا داخلها ، كان الليل حالك الظلام . وفجأة ترامى إلى سمعنا صوت سلاح ، فتبادلنا ـ أنا وأختى ـ نظرات الأمل ، وقالت أختى بانفعال :

ـ والله ، إنهم المجاهدون .

فقلت لها وأنا أرتعد من الخوف :

ـ أرجو الله أن يكونوا هُم .

قالت أختى :

ـ إذا لم يُقَدِّر الله أن ينقذنا المجاهدون من أيدى الروس ، فإننى أدعو الله أن يقصف المجاهدون هذه العربة التى نركبها بصاروخ ، وبذلك ننجو من عذاب السجن .

ملأ صوت السلاح المكان كله، حتى أننا نسينا أمر ذلك الروسى. أثناء ذلك، أشار لنا الروسى بالخروج من العربة، ونحن غير قادرين على التحرك، وننظر إليه بدهشة وهو يعض على نواجذه بغضب، ويأمرنا بمغادرة العربة. فغادرناها، أنا أولا ومن ورائى أختى وأطفالها.

كانت الظلمة حالكة... وصوت السلاح وجرى الروس هنا وهناك فى هلع، يملأ المكان. أثناء ذلك بالضبط، شبّت النيران فى شاحنة روسية. وتصاعدت منها ألسنة اللهب. كان الأطفال يصرخون فزعا، فاحتويناهم - أنا وأختى - فى أحضاننا. ثم أشار لنا الروسى أن نختبئ خلف الدبابة. وعندما شبت النيران فى شاحنة أخرى، تعالت صرخات الروس الذين بداخلها، وأخذوا يتدافعون للقفز منها طلبا للنجاة. وكل من ألقى بنفسه من الشاحنة، أصابته نيران المجاهدين. كانت قافلة الشاحنات طويلة بدرجة واضحة... لابد أن الهدف بعد ذلك هو الدبابات.

رائحة الدم والنار تملآن المكان، ونحن حائرون فيما يجب أن نفعل. كنا نسمع صوت القذائف وهى تمرق من حولنا، وصرخات الأطفال المفزوعين من صوت السلاح المخيف، تضيف إلى ضجيج المكان، ضجيجا.

قُصفت الدبابة التى نختبئ خلفها، وعلينا الآن أن نفعل شيئا... النيران الناتجة عن احتَراق الدبابات والعربات، والشاحنات، أضاءت المكان حولنا مثل النهار، وبالتالى صار الهدف واضحا أمام المجاهدين.

كان الجندى الروسى - أثناء ذلك - ينظر إلينا وهو خائف. وفجأة، انطلق صوت من الجبال يطلب الهدنة، فتوقف المجاهدون عن الضرب، وتوقف الروس بدورهم. وساد السكون المكان، إلا من صوت العربات المحترقة، وصوت أنين الضباط الروس، والعملاء من الضباط الأفغان. أشار لنا الروسى الذى كان بجوارنا أن نتبعه، فأتبعناه. كنا نفعل مثلما يفعل. وتلمسنا طريقنا حثيثا ونحن نزحف على الأرض، وقد خلّفْنا وراءنا الدبابات المحترقة، بعدذلك أطلق الروسى ساقيه للريح، ونحن نجرى وراءه تماما. وفجأة، ملأ المكان صوت مدفع رشاش. كانت طلقات المدفع تمرق من جانبنا، فسقط الروسى الراكض أمامنا على الأرض، وانبطحت أنا وأختى على الأرض، ثم توقف صوت السلاح. انحنيت على

الروسى لأرى ماذا أصابه، فوجدته وقد مات. فنظرتُ إلى أختى وهى تبكى . . . لَم نفكر أنه ستكتب لنا النجاة إذا تمكنا من اجتياز الطريق إلى الجانب الآخر. فالذين رأونا وأطلقوا علينا النيران كانوا من الروس.

كان الأطفال يصرخون من الفزع، ونزعت معطف الروسى الميت لألفّ به الطفل الصغير، وقلت لأختى:

- هيا، إنها كما قلت فرصتنا الأخيرة للهرب.

كنا نرقد فى منتصف الطريق وكأننا قتلى، ثم بدأنا نزحف ببطء. كنا نزحف خطوة أو خطوتين ثم نتوقف ونتمدد على الأرض كالموتى. آه ياربى . . . وبعون الله عبرنا إلى الناحية الأخرى من الطريق، ثم قلت لأختى:

- الحمد لله، لقد عبرنا . . . بقى أن نجرى قليلا لنصل إلى ما وراء تلك الربوة، وبذلك نكون قد نجونا.

قالت:

- هيا بنا، الله معنا.

نهضنا، وانطلقنا نجرى. جرينا لمدة نصف ساعة بغير توقف . . . والحمد لله، فقد نجونا. ثم قالت أختى:

- كفانا جريا . . . لنسترح قليلا، فأنا أكاد أموت من شدة التعب.

فتوقفنا. وعندما أشرق الصباح، استأنفنا السير، وقطعنا طريقا طوله يومين وليلتين سيرا على الأقدام. لم نكن نعرف ونحن وسط الجبال، إلى أين نحن نسير. وبالأمس فتشتُ جيوب المعطف الذى أخذناه من الروسى، فوجدت فيه القطعتين الذهبيتين اللتين أخذهما منا، وكذلك متعلقاته الشخصية. ونظرا لبرودة الجوّ، قررت ارتداء المعطف، فقد كان البرد شديدا، حتى أننى نسيت ممن أخذتُه. وقطعنا طريقا طويلا لمدة ثلاثة أيام بلا ماء أو طعام. إلى هذا وكانت قواى قد أنهكت تماما، وأصبحتُ عاجزا عن مواصلة السير. وقبل بضع ساعات، كنا نجلس فوق هذه الربوة، وسمعنا أصواتكم، فاقتربنا. كنا خائفين من كل شىء من الناس، من

الجبل، من الحجارة، من الطير، خائفين من كل شيء ومن كل صوت. . . كنا نترقب خوفا من أن يكون في الأمر لصوص. جلست أختي مع أطفالها، وبدأتُ أنا في مراقبتكم. وعندما وقفتم للصلاة، كاد قلبي أن يتوقف من شدة الفرح. أردت أن أصرخ، لكن صوتي احتبس في حلقي. . . كنت حائرا من فَرْط السعادة. رجعت إلى أختي وأنا أجري، لكني لم أستطع أن أشرح لها ما رأيت. كانت أختي تنظر إليّ في دهشة. وعندما أردت أن أرجع إليكم مرة أخرى، قابلتكم. لكنكم ظننتم أنني روسي، فانهلتم عليّ ضربًا. وكنت من فرط الجوع والتعب، قد أغمى عليّ، فلم أشعر حتى بضربكم.

حكى الشاب كل هذا، دون أن تُفارق الابتسامة شفتيه.

* * *

أخذ القائد والمجاهدون يتشاورون في الأمر فيما بينهم، بينما اقتربتُ من المرأة. كان الدم يسيل من قدميها، تكلمتُ معها وأنا أبكي:

ـ آه يا ابنتي، لقد تعذبتِ كثيرا.

فأجابت والدمع يفيض من عينيها:

ـ آه يا خالتي. ليت ما حدث قد أصابني وحدي. ابني الصغير، يبدو أنه يحتضر.

ألقيتُ نظرة على الطفل الذي في القُماط، وأمسكت بيده. . . يا ربي: كانت ساخنة كالنار. وكان الطفل يئن من فرط الإعياء. فأدركتُ أن الصغير يعيش لحظاته الأخيرة، وكأن ما أدركته قد ارتسم على وجهي وقرأته المرأة، فقالت في خوف:

ـ أخبريني يا أمي، إنه يحتضر، أليس كذلك. . ؟.

ـ كلا يا ابنتي، إنه بخير؛ كل ما في الأمر أنه منهك من أثر الجوع والبرد. إن شاءالله سيتحسن بسرعة.

توجه القائد إلى عبد الأحد يسأله:

ـ والآن، أخبرني، ماذا قررتم. . ؟ أعني ما وجهتكم. . ؟

استدار الفتى ناحية أخته يسألها :

ـ نحن ذاهبون إلى باكستان ، أليس كذلك يا أختى . . ؟

أجابته :

ـ لكننا خائفون ، كما أننا ضللنا الطريق ولا نعرف ماذا نفعل .

قال القائد :

ـ نحن أيضا ذاهبون إلى باكستان . يمكنكم أن ترافقونا . هذا طبعا إذا شئتم .

فاطمأنّ الأخوان وقالا :

ـ أحقا يمكننا مرافقتكم إلى هناك . . . الحمد لله .

* * *

أخبرتُ القائد أن الطفل الذى فى القماط ، مريض وحالته سيئة . فقال :

ـ وماذا بيدنا . الأمل كله معقود على الله . لكن . . ؟ ربما نصل إلى باكستان بسرعة إذا أسرعنا الخُطى ، وعندئذ يمكن إسعافه .

أوشك الصبح أن ينبلج . فصلينا الفجر ، وتهيأنا لمواصلة السير . كان الفتى وأخته غير قادرَين على السير من فرط التعب . فكنتُ أحمل عنها الطفل الصغير من حين لآخر . بينما المسكين محترقا من شدة السخونة . تساءل الفتى عبد الأحد :

ـ أيها القائد الصاحب ، هل أنتم الذين أطلقتم النيران على رتل السيارات فى تلك الليلة . . ؟

أجاب القائد :

ـ لا ، فذلك الموقع تابع لجبهة «جلال آباد» المركزية . ولا شك أن المجموعة التى أطلقت النار كانت تابعة لهم .

قال عبد الأحد :

ـ لكنا لم نلتَق بهم رغم أننا مشينا على الطريق لمدة ثلاثة أيام .

أجاب القائد والابتسامة ترتسم على وجهه :

ـ كان عليكم الانتظار . . ؟ فبعد انتهاء القصف كان من الممكن أن ينزل المجاهدون لجمع الغنائم ، وعندئذ كنتم تجنبتم كل هذه المشكلات .

* * *

توقفنا عن المسير أثناء الليل ، ثم استأنفناه فى الصباح . وفجأة صاح أحد المجاهدين قائلا للقائد :

ـ انظر ماذا يحدث لهذا الطفل !

هرعت أم الطفل ، احتضنت صغيرها وهى تبكى بحرقة . فانتزع عبد الأحد الطفل من بين ذراعيها ، والتففنا كلنا حول الصغير . حقا ، إنه يلفظ أنفاسه الأخيرة . وما هى إلا دقائق حتى أسلم الطفل الروح بين يدى القائد . أجهشت أمه فى البكاء ، ولم نتمالك أنفسنا ، فبكينا معها . كانت تبكى وتردد :

ـ ياربى ، ألهمنى الصبر . أنت الذى وهبته لى وأنت الذى استرددته . وبعد بضع ساعات ، أودع المجاهدون الطفل الثرى فى طريق الجبل بينما أمه تبكى بحرقة بجوار قبره . وعند مغادرتنا المكان ، رفضَت الأم المجىء معنا ، واحتراما لمشاعرها ، أضطررنا أن نقضى ليلة أخرى فى نفس المكان . وعند الصباح ، واسيناها ، وأقنعناها بالمضى معنا . كان الجميع محزونين . وكانت عيون أم الطفل الشهيد أكثر العيون دمعا .

* * *

فرح أمين الله بأصدقائه الجدد من الأطفال ، فضحك وسار معهم . وكنا إذا توقفنا عن المسير ، تتنحى الأم الشابة جانبا ، وتبكى بكاءً مريرا لا ينقطع حتى نستأنف سيرنا ، فكنت أواسيها لأخفف حزنها .

وذات مرة كنت أجلس إلى جوارها أسَرِّى عنها . فأقبل الجندى المناوب ، وأبلغ القائد أن جنديين مسلحين قادمان ناحيتنا ، فاستعد القائد والمجاهدون بأسلحتهم ، وتقدموا إلى حيث أشار الجندى ، وصاح القائد فى مكبِّر الصوت ؛ مخاطبا الجنديين المسلحين أن يلقيا سلاحهما أرضا . لم يكن بمقدورنا تبيُّن ما يجرى لأننا نقف خلف

ربوة عالية. فكرر القائد نداءه، وأصدر أمرا لعدد من المجاهدين أن يأتوا بالجنديين، فأتوا بهما مستسلمين رافعين أيديهما إلى أعلى، بينما حمل مجاهدان آخران أسلحة الجنديين. فأمرهم القائد أن ينزلا أيديهما. كان الجنديان منفعلين. قال أحدهما قبل أن يُنزل يده، وهو يلهث بأنفاس متلاحقة، ومتقطعة:

ـ لقد هربنا، هربنا، نعم لقد هربنا، الحمد لله أننا التقينا بكم.

ضحك القائد والمجاهدون، بينما الجنديان ينظران إليهم فى حيرة وسذاجة، وقد ارتسمت على عيونهما علامات الدهشة، ثم سألهما القائد:

ـ أهلا بكما، من أى مفرزة عسكرية هربتما..؟ وكم عدد الهاربين..؟

أنزل الجنديان أيديهما وهما ينظران إلينا، ثم تكلم الجندى الذى تكلم من قبل وقال بنفس الحماس:

ـ لقد هربنا، نحن فقط. نحن ـ الاثنين ـ فقط: أنا وصديقى من «واردوق» لقد أخذونا عنوة إلى التجنيد الإجبارى. وخلال أسبوع واحد فقط، نقلونا من مدينة «جلال أباد» وألحقونا بالمَفرَزة العسكرية الثالثة. وكان المجاهدون يُغيرون كل ليلة. لكن للأسف لم يصلوا إلينا مع إننا كنا نتوق لذلك. آه، كنا ننتظرَهم دوما. كان الضباط الروس والعملاء من الأفغان يأمروننا بإطلاق النار من أبراج القلعة كل ليلة، بدون توقف. لكن كيف يمكننا أن نطلق النار على إخواننا..؟!.. إن آخر ما أوصتنى به أمى وهى تبكى، عندما جاءوا ليسحبونى قهراً إلى التجنيد الإجبارى:

ـ إياك يا بنى، إياك أن تطلق ولو رصاصة واحدة على إخوانك المجاهدين. واعلم أننى لن أسامحك إن فعلت. أوصيك أن تهرب فى أول فرصة تلوح لك. واحرص أن تكون أنت وإخوانك المجاهدين يدا واحدة. لا تخش شيئا، فالله معك وأنا أدعو لك. إياك يابنى. تذكّر دائما وصيتى لك ولا تيأس واصبر، إن الله مع الصابرين.

كنا نطلق الرصاص كل ليلة فى الهواء، وكانت كل تحركاتنا تحت المراقبة؛ ذلك لأن الروس لم يثقوا فينا. فكانوا يجردوننا من سلاحنا، ولايعطونه لنا إلا فى الليالى التى يفتح فيها المجاهدون نيران أسلحتهم. وتنقلنا بين ثلاث مفرزات

عسكرية، كنا نتحين الفرصة للهرب. أتظنون أننا نحن الاثنين فقط اللذين كنا نترقب ونتطلع إلى هذا! كلا، فالجنود كلهم كانوا يترقبون مجيء المجاهدين. بل إن بين الضباط الأفغان من يترقب أيضا مثلنا. ورغم أننا لم نتكلّم فيما بيننا فى هذا الشأن خشية أن يحاكمونا بتهمة الخيانة، كنا نقرأه فى وجوه بعضنا البعض، ولا نملك سوى الصبر والانتظار.

ومساء أمس، كنت وصديقى وثلاثة جنود آخرين مناوبين فى برج القلعة. وكان أولئك الثلاثة يتهامسون فيما بينهم بشىء ما. كان ثلاثتهم من «كابول» وسألنى صديقى:

- تُرى عمَّ يتهامسون..؟! أتوقُ لمعرفة ما يدور بينهم. أشعرُ بعدم ارتياح... ولماذا لَم يفتح المجاهدون نيرانهم هذه الليلة،... متى يأتون..!

فقلت له:

- اسكت أيها الأبله. لقد أدركت كُنهَ الأمر.

فنظرَ إلىّ فى دهشة، ثم بدأ يردد أغنية قديمة، ورويدا رويدا؛ تظاهر بالاستغراق فى النوم. ثم تظاهرت أنا أيضا بالنوم. وبعد بضع دقائق أيقظنى واحد من أولئك الثلاثة وهو يهمس:

- ياأنت، انتبه إلىّ ياأخى، لقد قررنا الهرب الآن. ما قولكما..؟ أتهربان معنا..؟ تصنَّعتُ الدهشة لسماع قوله هذا، بينما تظاهر صديقى أنه استيقظ من النوم، ونظر إلينا وكأنه يتساءل عمَّ يحدث. فقلت فى حدة مفتعلة:

- ماذا تقول أيها المخادع..! أتود أن تُعرِّضنا للإعدام رميا بالرصاص..؟

قال الرجل فى غضب:

- يالكما من أحمقين معتوهين. سيُغيرُ المجاهدون على القلعة ليلة غدا. ولن يلتفتوا إلى دموعنا. ثم؛ أتظنان الهرب أثناء تلك الجَلَبَة سيكون أمرا ممكنا..؟! هيا انهضا، لا داعى للتردد.

فقلت له:

- إذا كنت عازما على الهرب فاهرب. لكن ما شأننا نحن بهذا..؟

قال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة:

ـ مع الأسف، لقد ظننت أنك واحدا منَّا. ومهما كان الأمر، فقد قررنا الهرب. أستودعك الله.

قال هذا ثم زحف ناحية صديقيه اللذين كانا فى انتظاره. كان كل منا ينظر إلى الآخر، ولا أعرف لماذا لم أطمئن لهم.

كان هؤلاء الجنود الثلاثة قد ربطوا من قَبل حبلا فى حديد البرج. فبدءوا فى الانزلاق عليه بهدوء إلى أسفل، واحدا تلو الآخر. انزلق اثنان منهم ثم التفت الثالث ناحيتنا وهزَّ يده لتحيتنا بغير أن يتفوّه بكلمة واحدة.

كنت وصديقى مازلنا واقفين فى مكاننا ننظر إليهم فى دهشة استغرقتنا. وبعد بضع دقائق، استَعدنا انتباهنا، فقال صديقى:

ـ هيا بنا أيها الأبله لنلحق بهم. أجَبْتُه وأنا مازلت مندهشا:

ـ مستحيل.. !!! فصاح قائلا:

ـ مادام الأمر كذلك، فاطلق النار إذَن واعلن أنهم هربوا.

قلت:

ـ ماذا؟! أتظن أننى وضيع إلى هذا الحد.. !

فاستطرد صديقى قائلا:

ـ إذَن، عندما يسألونك عن أمر هروبهم، قُل إنك لا تعلم شيئا عن هذا الأمر، أليس كذلك.. ؟

كنت أنظر إليه وهو يتكلم وأنا غارق فى الحيرة. ثم استعدت انتباهى كاملا، وفكرت والأسى يملؤنى:

ـ ماذا لو كان هؤلاء الثلاثة يخدعوننا.. ؟ وماذا لو أطلقتُ النار الآن وأعلنت عن هروبهم، ثم اتضح بعد ذلك أنهم منَّا.. ؟ آه ياربى، كيف أتصرَّف.. ؟؟ لابد أن أحسم أمرى الآن.

التفتُّ إلى صديقى قائلا:

ـ اسمعنى، مهما كان الأمر فالشهادة فى انتظارنا فى نهاية المطاف. هيا بنا لنلحق بهم.

فعانقنى قائلا :

ـ هيا بنا ياصديقى الشجاع . توكلنا على الله . هيا .

تحركنا من مكاننا بهدوء ، وحملنا الكلاشينكوف فوق أكتافنا ، وتقدمنا ناحية الحَبل الذى مازال معلقا فى مكانه ، وكأنه فى انتظارنا . تعلّقْتُ بالحبل ومن ورائى صديقى ، وانزلقنا إلى أسفل القلعة . الظلام يلف المكان . . . والسكون مطبق . . . ياحالنا إذا رآنا أحدهم من البرج الآخر . . ! كانت الأشجار تحيط بموقع المفرزة العسكرية وكأنها غابة من الغابات . كنت وصديقى نجرى بأقصى سرعتنا ، وبدون أن نتبادل كلمة واحدة . . . كنا نجرى ونحتمى بالأشجار ، ونتوقف من حين لآخر ؛ نُرهف السمع فيما حولنا .

وفى فترة سألنى صديقى :

ـ أتعرف إلى أين نحن ذاهبان . . ؟ إحذر أن نلتقى بمفرزة عسكرية أخرى .

أشَرتُ إليه أن يصمت . كنا منفعلين . نهمس ونحن نختبئ بين الأشجار . وفجأة لاحت أمامنا بضع خيالات لأشخاص وسمعنا مَن يأمرنا بالتوقف ، فوقفنا ، وقال صديقى :

ـ ياللمصيبة ، مقبوضٌ علينا لا محَالة .

أردتُ أن أمسك بندقيتى التى فوق كتفى ، لكن فات الوقت . تقدم أحدهم منا وقال :

ـ ها أنتما إذن لحقتما بنا . أتصدقان ، كنا نتوجس خيفة منكما ، فقد ظننا أنكما تراقبانا .

اندهشنا ، إنهم الأصدقاء الثلاثة الذين سبقونا إلى الهرب . وقال آخر :

ـ اسكتوا . هيا بنا من هنا . لقد أصبحت النجاة قاب قوسين أو أدنى . ها هو ذا الطريق المرصوف .

أسرعنا نحن الخمسة ، بدون أن نتبادل كلمة واحدة . كان أصدقاؤنا الكابليون يحملون الكلاشينكوف مثلنا . قال أحدهم :

ـ ها هو ذا الطريق المرصوف . الحمد لله لقد نجونا . هيا بنا نعبر الطريق ثم نصعد الجبل .

انبطحنا فى مكاننا استعدادا لاجتياز الطريق زحفا . وزحفنا حتى بلغنا الجانب الآخر من الطريق . ثم مشينا داخل الغابة بمحاذاة أسفل الجبل . قال أحدهم :

ـ أرى أن نمضى من هذه الناحية .

فقلت :

ـ لا ، بل من تلك الناحية . فهذه الناحية قريبة من مدينة جلال آباد ، ومحتمل وجود مفرزات عسكرية على ذلك الطريق .

تحاورنا كثيرا لنختار أى الطريقين نسلك . وفى النهاية قالوا :

ـ لقد نجونا بفضل الله ، لكن الحذر أمر واجب . سنسلك نحن هذا الطريق الذى دلّنا عليه المجاهد الذى اتفقنا معه .

لسبب ما لم نذهب معهم . فتعانقنا ، وافترقنا . وسار كلٌّ منَّا فى طريق . ومشينا نحن بغير توقف فى الطريق الذى ارتأيناه ، إلى أن التقينا بكم .

* * *

وبعد ساعة ، كتب القائد شيئا فى ورقة ، وأعطاها إلى هذين الجنديين ، قائلا :

ـ لقد رسمتُ لكما فى هذه الورقة مكان أقرب جبهة . قدِّما هذه الورقة إلى الزميل القائد هناك ، وأقرآه السلام ، ولاتنسيا أن تبُدلا ملابسكما العسكرية هذه ، وأيضا فكّكا الكلاشينكوف التى معكما ، وضعاها فى هذا الجوال ، فمن المحتمل أن يقطع اللصوص طريقكما . كونا على حذر ويقظة ، ولا تَثِقا فى أحد قط ، هيا فى أمان الله .

نفَّذ الجنديان تعليمات القائد ، وأخذا الورقة ، وعانقا المجاهدين ، ثم أخذا طريقهما واستأنفنا نحن سيرنا .

* * *

ياإلهى ، ما أكثر ما رأيت فى هذه الأيام المعدودة . مهلا يا نفس . تريَّثى ، فما أكثر ما تخبئه الأيام . الطُّرُقُ . . . الطرق . . . الطرق لا تنتهى . . . كنت أظن أننى سأموت من فرط التعب . ثم تلوح بمخيلتى صورة ابنى الشهيد ، فأحدّث نفسى ؛ آه ، ليته

مازال حيا. مَن يدرى، تُرى سيقدرُ لى أن أشاهد قريتى مرة أخرى!!! آه، كم أن هذا القلب مفعم بالألم. كنت أرى فى منامى طوال الليل، أننى أتجول هناك... فى قريتى. أرى أننى هناك فى حقلنا، وابنى ينظر إلىّ من فوق الربوة. آه، ياقريتى الجميلة، ياقريتى، ياحبيبتى، ما أسرع افتراقى عنك. لماذا جئتُ إلى هنا..؟.. ولماذا لم أبقَ هناك..؟ ليتنى استشهدتُ بين أحضانك، عندئذ كنت سأقرُّ عينا.

* * *

دخلنا «بارا تشنار» بعد يومين من المسير. لم أكن أنام أنا والمرأة الشابة والأطفال سوى جزء من الليل. وبعد بضعة أيام، سألتنى:

ـ من أين أنت يا أمى..؟ حكيت لها قصتى كاملة. كانت تسمعنى، وهى تبكى بحرقة، وبعدها انخرطنا فى البكاء سويا. قالت لى وسط نحيبها:

ـ إن هذا هو ما قدّره الله علينا. الحمد لله إننا مؤمنون. لكنى أتساءل دومًا؛ لماذا حلّ بنا كل هذا..؟ لابد أننا اقترفنا ذنبا كبيرا، أليس كذلك ياأمى..؟ فمُهاجرونا من القازاق والتاجيك والأوزبك، كانوايأتون فى أعراسنا، وكنا نراهم، ينتحون جانبا ويجلسون معا والحزن يملؤهم. كنت صغيرة آنذاك، وكنت أتأمّلُ ملابسهم وطريقتهم فى الجلوس، وكلامهم، ووجوههم التى لاتبتسم أبدا... وأتساءل بينى وبين نفسى عن سبب كل هذا الحزن الذى يرتسم على وجوههم... لماذا لايضحكون أبدا..؟ بعض نسائهم كن يتكلمن مع أمهاتنا وخالاتنا عن قراهن وبلادهن الجميلة، وكنت أستمع إليهن وأتساءل:

ـ مادامت بلادهم بكل هذا الجمال، لماذا إذن تركوها وجاءوا إلى هنا..؟! كان يجب عليهم أن يكلمونا عن سبب مجيئهم. كان يجب أن يوضّحوا لنا السبب. ويقولوا لنا: خذوا العبرة من حالنا، أليس كذلك ياأمى..؟ لقد أخطأنا، وها نحن وحدنا ندفع ثمن أخطائنا. نعم يا أمى، نعم، صدّقينى.

* * *

مع خيوط الصباح الأولى، ركبنا إحدى الشاحنات المتجهة إلى «بيشاور». كنت أفكر؛ تُرى هل سأعتاد حياتى الجديدة فى بيشاور. أشعر أننى أبدأ حياة صعبة.

فامرأة عجوز مثلى ماذا تفعل هناك . . ؟ وكيف تدبر طعامها هي وحفيديها الصغيرين . . ؟ لكن لم ينقطع الأمل فى الله العلى العظيم . وكنت أعَزِّى نفسى بأن من هاجر فى سبيل الله إلى أى مكان على وجه الأرض ، سيحفظه الله ويرزقه رزقا واسعا . ومن يخرج من بيته مهاجرا فى سبيل الله ورسوله ، ثم يُدركه الموت ، فإن أجره على الله . إن الله هو الرحمن الرحيم .

ما أن شاهد أمين الله الزحام فى بيشاور ، حتى تهلل فرحا ، وانطلق يجرى هنا وهناك مرددا :

ـ ياه ، ما كُل هذا الزحام . . ! !

أجلسنا القائد مع امرأتين ، إلى جوار حائط . ومضى مع المجاهدين إلى مكان ما ، ثم رجع بعد حوالى ثلاث ساعات ومعه عبد الأحد . قال عبد الأحد لأخته :

ـ هيا انهضى ، سنذهب الآن .

فسألَتْه بصوت حزين :

ـ إلى أين .

فأجابها :

ـ إلى معسكر المنصورة . سنَبْلُغه بعد يوم واحد .

فسألته امرأة وهى تومىء إلينا :

ـ وهؤلاء ، هل سيذهبون معنا . . ؟

قال القائد :

ـ كلا ، هؤلاء سيذهبون إلى معسكر الأرامل .

انخرطَت المرأة فى البكاء ، وعانقتى قائلة :

ـ شاركينى البكاء ياأمى . إبْكى معى ، فقد آن لنا أن نفترق ، ومن يدرى ؛ قد لانلتقى مرة أخرى . ماذا سأفعلَ ياربى فى ذلك البلد الذى لاأعرفه ، ولا أعرف فيه أحدا . . ؟

كنت أبكى بدورى، لكن علينا أن نصبر . وتوادعنا وذهب كل منا فى طريق .
قلت للقائد :

-يا ولدى، لقد أرهقتُكم . وإنى لأدعو الله أن يحفظك ويرضى عنك .

ابتسم القائد وقال :

-أمى ، لا تقولى هذا، فهذه هى وظيفتنا اشكرى الله أننا خرجنا من هذا السفر الطويل بلا خسائر .

فسألتُه فى حياء :

-لكن ، قل لى، ماذا عن معسكر الأرامل هذا . . ؟ ومع من سنعيش هناك . . ؟

قال القائد :

-ياأمى ، معسكر الأرامل عبارة عن معسكر صغير داخل معسكر « ناصر باغ» ، تقيم فيه النساء اللاتى لم يبق لهن عائل فى الدنيا . يعشن هناك بالمساعدات التى يقدمها لهن «الاتحاد الإسلامى» وحكومة باكستان؛ قَلَّت هذه المساعدات أم كثُرَت . وقد راسلتُ المكتب الرئيسى بشأنك فقرروا إرسالك إلى هناك . اصبرى يا أمى وادع الله ، فذات يوم ستنتهى غُربتنا هذه ونعود إلى بلادنا . . . فى معسكر الأرامل آلاف الأمهات اللاتى استشهد أبناؤهن مثلك . وتعيش أيضا الأرامل والأيتام ، وستنسين بينهم آلامك . ولا تنسى يا أمى أننا أيضا أبناؤك .

وصلنا معسكر الأرامل بعد ساعات . وداخل المعسكر قادتنى شرطية باكستانية إلى خيمة خالية . ودّعنا القائد ثم مضى وعيناه مغرورقتان بالدموع ، وأنا أدعو له . أحسست حين مضى أننى فقدت ابنى للمرة الثانية ، وجاهدت نفسى حتى أمنعها من البكاء . وبعد وصولى إلى الخيمة ، ما هى إلا دقائق وكانت الخيمة قد امتلأت عن آخرها بالنساء . كل واحدة منهن تسألنى سؤالا ؛ من أين أنا . . ؟ ومن يكون هذان الطفلان . . ؟ وهل هما أيضا يتيمان . . ؟ أمَّا الآن فقد اعتدنا الحياة فى معسكر الأرامل . أحيانا يملؤنى الإحساس أننى وُلدتُ وتربيت هنا . وماذا فى هذه الدنيا لا يعتاده الإنسان . . !!

* * *

ضيوف غير متوقعين

كان الوقت قبيل الظهر، والهواء بارد جدا، عندما سمعنا عدة طرقات متتالية على باب البيت. اتجهَت عائشة ناحية الباب وسألت:

من الطارق..؟! فلم تسمع ردا. انتَظَرتْ عائشة خلف الباب بينما انتبهنا، أنا وأمي انتباها شديدا. ثم انطلق من الخارج صوت هينمة يقول:

ـ يبدو أن لا أحد بالداخل، أو أننا طرقنا بابا آخر. أغلب الظن أن هذا البيت غير الذى نقصده.

فأجابه صوت رقيق:

ـ كلا، بل هو. لقد جئت إلى هنا عدة مرات السنة الماضية.

وانطلق صوت امرأة غاضبة:

ـ هيا إذن واطرُق الباب مرة أخرى، ربما يكون أحد بالداخل.

بدا لعائشة أنها تعرف هذا الصوت، ففتحت الباب فتحة ضيقة، ونحن فى حالة ترقُّب. ثم صاحت بصوت يملؤه الانفعال:

ـ أمى، إنه توحيد وأسرته، لقد جاءوا..!

وكانت مفاجأة. أحيانا يعجز الإنسان عن التصرف فى مثل هذه المواقف، فلايعرف ماذا يفعل... تسمَّرتُ فى مكانى. لم أتحرَّك؛ وأنا أنظر إلى من يدخلون من الباب. دخل أولاً طفلان فى الثامنة من العمر؛ أحدهما محمد توحيد، والآخر عمه، واتجها إلى الداخل مباشرة. كان التراب يغطيهما من قمة الرأس إلى أخمُص القدم. كان وجه توحيد يبدو ذابلاً، وقد اكتسبت بشرته لونا أسود. كما كان جسمه يبدو ضعيفا بدرجة تثير الدهشة. كذلك بياض عينيه؛ كان أصفر اللون. شفتاه بيضاء بلون الجير. ياإلهى، كيف أصبح توحيد المسكين هكذا؛ جلدا على عظم. كان على رأس كل واحد من الولدين قلنسوة روسية. ثم دخلت امرأتان بالملاءة الأفغانية والنقاب. كانتا تبدوان فى حياء شديد. كانت أمى تنظر إليهما وهى

مازالت واقفة فى مكانها، وقد اكتسى وجهها بصفرة خفيفة من المفاجأة. . . فى النهاية استجمعت أمى نفسها، وتقدمَّت إليهما ببطء. كشفت المرأة التى فى المقدمة النقاب عن وجهها، وأخذت تتلفت حولها فى قلق. . . نعم، لقد عرفتها. إنها أم توحيد. . . كانت ملامحها تنطق بالمعاناة التى تعرَّضت لها. ورغم هذا لم تنهر معنويَّاتها. إنها امرأة قوية الاحتمال، فارعة الطول، شجاعة، يطل من عينيها حزن كبير، وحيرة. كانت تبدو متعبة، وقد تأبطت تحت ذراعها الأيمن صُرَّة، بينما تدلى ذراعها الأيسرمتصلبا بغير حراك، وقد ارتدت فيه قفازا من القطن. واسترعى انتباهى أنها تحرك ذراعها الأيمن فقط.

وقَفَت أم توحيد تتأمل المكان، وكأنها تتفرج على الجدران القرميدية المنخفضة الرطبة الندية. . . وعلى الأرض المفروشة بقطع القرميد المكسور، وعلى الشجرة العتيقة التى تقف فى ركن الفناء؛ وحيدة مثل الغريب. وتعلَّقَت عيناها بأمى الواقفة أمامها وقد امتلأت عينى أمى بالدموع. وتقدَّمت أمى ناحيتها بشكل تلقائى وعانقتها، فألقت أم توحيد بالصرة من تحت ذراعها على الأرض، وعانقت أمى بذراعها الوحيدة وأجهشتا بالبكاء والنحيب.

كشفت المرأة التى تقف إلى الخلف عن وجهها، فتقدمنا إليها أنا وعائشة، ورحبنا بها. كانت الابنة المكلومة لهذه السيدة. . . والبنت الوحيدة فى أسرة مكونة من ثلاثة عشر فردا، اسمها «قمرى كول». وهى فتاة طويلة القامة، ونحيفة إلى أقصى درجات النحافة. . . عيونها الحزينة تنظر دائما ناحية الأرض فى خجل. من فرط نحافتها، يبدو وكأنها لا تقوى على السير. الأمر المدهش حقا؛ كيف ينطوى هذا الجسم الضعيف على قلب عامر بمثل هذا الإيمان القوى. . !! كانت الدموع تنهمر من عينيها بلا انقطاع. وفى نهاية الأمر، دخلنا بأمهاتنا إلى البيت، وهُنَّ فى أقصى درجات التعب.

كانت الأم وابنتها تحملقان بدهشة فى أرجاء الغرفة. ثم التفتت الأم، والدة محمد توحيد إلى أمى الباكية وقالت:

- لقد أرادهم الله يا أختى. فى الأصل هم أمانة أودعها الله عندنا، وقد استرد أمانته. . .

الشيخ محمد مُريد، أبٌ لبنت واحدة، وأحد عشر ابنا. . . أحد عشر ابنا تضىء

وجوههم بنور الإيمان، كأنهم كتلة من نور. . . وهو يشكر الله ليل نهار، ويتضرّع إليه أن يُعينه على تربيتهم، كما يحب ويرضى. ولقد استجاب الله العلى العظيم لدعائه، فهو الرحمن الرحيم الذى لا يضنُّ برحمته على أحد من عباده. وكان للشيخ مُريد دعاءٌ طويلٌ يردده دائما هو:

ـ اللهم يا واسع الرحمة والمغفرة، أعنِّى على تربية أبنائى، أمانتك التى أودعتنى إيَّاها، ليعملوا فى سبيلك وحدك، وينالوا رضاك وحدك. اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك من شرِّه. اللهم أعنِّى على تربيتهم ليكون كل واحد منهم مجاهدا، وكذلك ابنتى. . . اللهم امنحهم حَياة عامرة بالإيمان.

* * *

كان بيت الشيخ مُريد يقع فى سفح الربوة التى بها قائمقامية «كارغاى»، ياله من ترتيب إلهى. . !. . . قدَّر الله وما شاء فعل. . . فقد اختبر الله عائلة مُريد بأقسى ابتلاء. إذ إن عائلات القرية، ضاقت بالدروس الدينية التى يتلقّاها أبناؤهم فى مدرسة الشيخ مُريد، وأخذوا يتبرَّمون منها. وكانت الأمهات الجاهلات يرددن:

ـ إنه أمر مستحيل وغير معقول. . . مامعنى أن يُثقل الشيخ مُريد على الأولاد بكل هذا القدر من العلوم الدينية. . !! أيود أن يجعل من أولادنا فقهاء مثله. . ؟!

وبالتدريج، امتَنَعن عن إرسال صغارهن إلى المدرسة، بعد أن امتلأت قلوب هؤلاء الصغار بنور الإيمان.

مضت سنوات على هذا، وكبر أولاد الشيخ. وأصبح ابنه محمد سيد مدرسا، ومحمد شهيد طبيبا، أما بقية أبنائه فقد كانوا فى المدارس الثانوية والمتوسطة والابتدائية. كان كل أهل القرية فى غيِّهم يعمهون، إلا عائلة الشيخ مريد. فقد خلعت فتيات القرية حجابهن، وأصبحَن أكثر سفورا من فتيات المدينة. كن يتشدقن فى مجالسهن بالتقدمية والتحرر، وبما حدثهن به إخوانهن ممن انتسبوا إلى الفكر الشيوعى. . . ما كن ينفرن من شىء فى الدنيا قدر نفورهن من اللحى والملتحين.

حدّثتْ واحدة من هؤلاء البنات زميلاتها قائلة:

ـ نعم، لقد حدثني أخي الأكبر أن اللحية لم تعد مناسبة للعصر، وأن الناس في كابول يسخرون ممن يرتدي الشالوار. وقال أيضا:

ـ إننا نحن الفتيات قد تخلفنا كثيرا.

وأطلعني على صور فتيات في غاية الجمال. إحداهن شعرها قصير. أؤكد أنكن لم ترين من قبل فتاة مثلها. وقال أيضا:

ـ إن هؤلاء الشيوخ هم سبب تخلفنا. إن بنات العائلات الغنية كلهن سافرات ومتعلمات. والشيوخ يتساهلون معهن ويغضون الطرف عن أخطائهن. في حين يجعلون من سفورنا نحن وذهابنا إلى السينما وتدخيننا السجائر، إثما كبيرا. ويقولون أن مأوانا جهنم. . . أليس تعليم القرآن عندهم له ثمن؟! والفتوى أيضا لها ثمن. . ؟! ويقول أخي أيضا:

ـ إنهم سيقطعون دابر هؤلاء الشيوخ.

وكان من الطبيعي أن تردد الفتيات ما يدور بينهن. وقالت أخرى:

ـ حقا، يقول أخي أن الآباء والأمهات ليس لهم الحق في تزويج بناتهم رغما عنهن. فأنت أختي، وإذا أحببت شابا فأخبريني، وأنا أتولى حل المسألة مع والدينا. فأنا أعرف كيف أتصرف إذا اعترضا.

* * *

هذا عن البنات. أما الأبناء فقد انقسموا بدورهم إلى ثلاث مجموعات: منهم من يتبع حزب الشعب ومنهم البرشمي ومنهم من ينتمي إلى حزب الشعلة الخالدة وهو حزب الصين الشيوعية [1]. وكلهم يحلمون بالثراء. فإذا دب بينهم الخلاف، دبروا المكائد وأوقعوا ببعضهم البعض. أحيانا يكونون على وفاق، وتدور أحاديثهم حول محمد شهيد، ومحمد سيد. وفي بعض الليالي يتشاجرون معهما، فينهالون

---

(١) شهدت أفغانستان منذ أواخر السبعينيات وحتى أواخر الثمانينيات ثلاثة أحزاب يسارية: أولها: وأقدمها حزب الشعلة الخالدة الذي تؤيده الصين الشيوعية، والثاني: حزب الشعب الديمقراطي (خلق) الذي أنشأه محمد نور تراقي، والثالث: هو حزب برشم (العَلَم) الذي رأسه بابراك كارميل. وكان السوفييت يدعمون هذين الحزبين الأخيرين.

سبا وشتما فى المدرسين الدينيين والمشايخ. وكانت إجابات محمد شهيد ومحمد سيد، علَى تساؤلاتهم، تزلزل كيانهم. وعندما يخلون إلى أنفسهم، ويتدبرون سبب عجزهم عن الرد عليهما، يقولون فيما بينهم:

- كيف عجزنا عن الرد عليهم..؟! إننا أكثر منهما عقلانية وتقدُّميَّة. وحتما سيأتى يوم نعرف فيه كيف نرد عليهم.

كانوا يقفون عاجزين أمام كلمة الحق. ورغم عجزهم كانوا فى ضلالهم سادرين. أما البنات، فكن يتحدين «قُمرى كول» ويسخرن منها بقولهن:

- إنها بلهاء؛ فهى لاتغادر البيت مطلقا. أتعرفن لماذا..؟ لأن الخروج من البيت ذنب..!

وصل الأمر بالناس أن أطلقوا على قلعة الرحيم اسم «موسكو الصغيرة». كان أقارب أسرة الشيخ مريد، هم ألد أعدائهم. فقد أذاقهم أبناء خئولتهم الويل ألوانا. ولم يُقصِّروا فى إيذائهم. مع هذا كانت أسرة الشيخ مريد تتمتع بإيمان راسخ، وثبات. فلم يخشوا بعد الله أحدا. وما خاف أهل قلعة الرحيم من أحد، قدر خوفهم من الدكتور شهيد، خاصة حينما يغضبون الله، عندئذ لايقدر أحد على التصدى له. حدث ذات يوم أن قال أمامه أحد أطباء المستشفى الذى يعمل فيه، أن الله غير موجود(حاشا لله)، فما كان من الدكتور شهيد، إلا أن أمسك بالطبيب، وهمَّ أن يلقى به من نافذة المستشفى، لولا أنه تمالك نفسه، فظل يكيل له الضربات حتى أسال الدم من أنفه وفمه. ولم يَسْلَمْ من ضربه كل من حاول أن يُخَلِّصه من يده.

كان محمد شهيد، يعود يوم الجمعة من كل أسبوع، فيطرق بشدة على أبواب الأسر الشيوعية، ويصيح فيهم متحديا، ويدعوهم للخروج إليه بقوله:

- أما من كلب شيوعى بالبيت..؟... إن كان، فليخرج ويحاورنى.

ومن لايخرج له، كان يُخرجه بالقوة، ويثيره ليشتبك معه. ويابؤس حال من يتصدى له. وكان الحديث الذى لاينقطع بين أخواله هو:

- لقد فاض الكيل بنا من عائلة مريد. يجب أن نتخلَّص منهم، وإلا جرّوا علينا المصائب... لقد امتنع أبناؤنا عن المجىء إلى القرية فى الأجازات خوفا منهم.

فكانوا يُغضون فى السِّر، بما لا يجرءون على الجهر به .

أما الأستاذ سيد، الأخ الأكبر للدكتور شهيد، فنموذج مختلف تماما . كان أكثر هدوءا ورفقا . وكان ينصح الدكتور شهيد بكبح جماح نفسه، وعدم التصرف بهذه الخشونة، وأن يجادل الناس بالتى هى أحسن . وكان شهيد يتنصت إليه باحترام، لكنه لايكف يده عن ضرب الملحدين . كان الأستاذ سيد معارضا لنظام الشاه وكان عضوا فى مجموعة الأستاذ نيازى[1] التى تعمل ضد الشاه . . كما كان يتحلى بالصبر الذى يهيئ له أسباب النجاح فى كل أعماله . ولأنه مُعَلِّم فى المدرسة، فقد التف حوله عدد كبير من التلاميذ، بشكل يثير الانتباه . أما محمد وحيد، فكان طالبا فى الصف النهائى فى المدرسة الثانوية . وهو يشبه فى طباعه أخاه الأكبر الأستاذ سيد . وكان محمد وحيد يدعو أصدقاءه فى المدرسة إلى طريق الهدى، فأحبوه بدورهم . وكان ترتيبه الأول دائما فى فصله، رغم كيد المدرسين الشيوعيين، وذوى الاتجاهات الأمريكية . وكانت تعليقاته وشروحه مؤثرة، وسرعان ما أصبح كل زملاء فصله يجتمعون فى بيته يوم الجمعة، ويستفيدون من خزانة علم أخيه الأستاذ سيد . كان هذا الوضع قذى لعين أهل قرية الرحيم . وماحال بينهم وبين أسرة الشيخ مريد، سوى خوفهم من الدكتور شهيد، فكانوا يعضّون على نواجزهم انتظارا لليوم الموعود .

أما الابن الرابع فهو محمد مزيد . وهو مثل أخيه شهيد، وله نفس طباعه . فلايجرؤ زملاؤه فى المدرسة على مناقشته فى قضايا كهذه . بل كانوا يستمعون إليه وهم صاغرون . وعندما التحق بالمدرسة الثانوية، لم يَسْلَم من يده أمريكى الاتجاه أو شيوعى، إلا ضربه . وكان خاله الكبير يردد :

ـ آه، إن عداءنا لشهيد ومزيد يفوق عداءنا لبقية أبناء الشيخ مريد . ما يقهرنى شىء قدر رؤيتهما فى القرية دائما .

---

(١) محمد غلام نيازى، تعلم فى مصر وتأثر بالحركة الإسلامية فيها . كان عميدا لكلية الشريعة فى كابول سنة ١٩٦٨، فكّر فى أن يربى جيلا من الشباب يبصره بخطورة التحول الذى يجرى فى أفغانستان أيام حكم محمد ظاهر شاه، وليقف أمام الزحف الشيوعى عليها . . بدأ دعوته بين الأساتذة، ثم بين الطلبة فى الجامعة بشكل سرى . شكل جمعية إسلامية لهذا الغرض باسم «جوانان مسلم» أى الشبان المسلمين عام ١٩٦٩، عام ١٩٧٢ غير أبناء الحركة الإسلامية اسم الجمعية إلى الجمعية الإسلامية، واختاروا برهان الدين ربانى رئيسا لها، بينما استمر الأستاذ نيازى يديرها من وراء ستار .

وفى يوم الجمعة من كل أسبوع، كان محمد شهيد يكتب ورقة ويثبتها بمسمار على باب بيت خاله يدعوه إلى صلاة الجمعة، ويُذكره بما ينتظر المرابين فى الآخرة من عذاب أليم. وأسقط فى يد أخواله، وعجزوا عن مواجهته، والغيظ يقتلهم.

شَغَل أبناء الخالة، وظائف مهمة فى كابول. وتولوا مناصب كبيرة فى الدوائر الرسمية. فقد كانوا ممن يلعقون تراب أمريكا، وطالما هددوا شهيدا بعزله من عمله. أما زوجة الخال الكبير، فقد أصبحت رئيسة اتحاد النساء الشيوعيات فى حزب الشعب. وبالطبع؛ كان نشاطهم سرًيا فى عهد الشاه.

وانقضى حكم الشاه داود[1]، واستولى الشيوعيون على السُّلطة بانقلاب دموى. وعمَّت الفرحة «قلعة الرحيم» من أقصاها إلى أقصاها. كلهم يتبادلون التهانى، إلا عائلة الشيخ مريد، فقد كانت مهمومة محزونة لهذا التغيير. لكنها كانت مستبشرة وصابرة.

كانت الخالات وأبناء خئولتهم وأزواجهم، يسخرون من أتباع الدكتور شهيد بقولهم:

-ياأنتم. مبارك علينا حكمنا الجديد. ألا تسعدون أنتم أيضا به. فينتفض محمد شهيد قائلا:

-بالطبع نعم، علينا أن نسعَد. فقد باع أبناء الخالات أمهاتهم، هيا اغربوا عن وجهى وإلا أخرجتكم بالقوة.

فيُمسك به الأستاذ سيد ليهدئه، ويطردهم قائلا:

-مبارك لكم جميعا. نحن نريد أن نضحك. ومن يضحك أخيرا، يضحك كثيرا. افرحوا واضحكوا فى بيوتكم. هيا اخرجوا.

فكانوا يخرجون من البيت وهم يتضاحكون ويتلامزون.

* * *

---

(١) فى يوليو ١٩٧٣ أطاحت روسيا بالملك محمد ظاهر شاه وجاءت مكانه بابن عمه محمد داود شاه، ليضرب الحركة الإسلامية فى أفغانستان. وقد استمر حكمه حتى أبريل ١٩٧٨، وكان يميل إلى الشيوعية، وقد تربى فى بيته كبار قادة الشيوعية أمثال نور الدين تراقى، وحفيظ الله أمين، وبابراك كارميل. وقد رتبت روسياانقلابا عسكريا ضده قاده مستشاره تراقى، بعد أن رأت روسيا أنه لم يستطع القضاء على الحركة الإسلامية، ولأنه فكر فى التخلص من الشيوعيين الذين يطمعون فى الحكم.

بدء الجهاد

علم الأستاذ سيد ببدء الجهاد الأفغانى بعد أسبوع واحد من استيلاء الشيوعيين على السلطة، فكانت سعادته غامرة بلا حدود. فَيوم الجهاد هو اليوم المرتقب، وإنه ليوم الفرحة، لذا شكر الله كثيرا على أن منَّ عليه ببلوغ هذا اليوم، وبدأ فورا التأهُّب للجهاد. أبعد النظام الشيوعى الدكتور شهيد، بأن نقلوه إلى قرية نائية. وانشغل أخوه الأستاذ سيد بعمل الاستعدادات الضرورية للجهاد. أما الشيخ مريد فكان يحس أن الأيام التى طالما انتظرها قد أوشكت، فلم يسعه سوى الابتهال شكرا لله وعرفانا. فكان يخلو لنفسه ويتمتم:

ـ لقد ظهر الحق، وسيتم الله نوره ولو كره الكافرون.

وكان يُحدث أبناءه فى بعض الأمسيات:

ـ كنتُ أعدُّكم لهذا اليوم، وهذا ما عاهدتُ الله عليه. وقد جاء يوم امتحانكم، أدعو الله أن يتقبل جهادكم فى سبيله.

ترك الأستاذ سيد عمله فى المدرسة، ليتفرَّغ للجهاد. وكان أخواله وأبناؤهم ينتظرون يوم الجمعة من كل أسبوع بفارغ الصبر، ليتحدوه ويثيروه بقولهم:

ـ انظر كم أصبحنا أقوياء..!... لقد أطحنا بالخونة وقتما أردنا. أين منظمة الشباب الإسلامى التى كوَّنتموها..؟ ماذا أصابها..؟

وبعد فترة بدءوا يرددون:

ـ لقد أعلنا الحرب على إخوان الشياطين (يقصدون الإخوان المسلمين)، وسيكون الإعدام مصير كل من يتعاون مع هذا الحزب الرجعى (جمال عبد الناصر هو أوّل من حوَّر اسم الإخوان المسلمين إلى إخوان الشياطين). تُرى، لماذا امتنع الأستاذ سيد عن المجىء إلى القرية فى الأسابيع الأخيرة..؟! لابد أن فى الأمر شيئا.

* * *

طلب الأستاذ سيد من تلاميذه المؤمنين، أن يستعدوا للجهاد. وكان هذا الشباب المؤمن قد أسلم قيادته إلى الأستاذ سيد. أثناء ذلك، لم يترك الشيوعيون سبيلا إلا سلكوه. كانوا يعتَلون كل منبر يلوح لهم، فيرفعون عقيرَتهم ويخطبون فى الناس بقولهم:

ـ لقد قضينا على الإمبريالية. ولتحيا ثورتنا الحمراء. الموت لعلماء الدين. . . الموت للرجعية. أيها الرفاق، لقد قامت ثورتنا وانتصرنا، فلايغيب عنكم أن بيننا عُملاءً لأمريكا، وأسوأ منهم بعض الرجعيين. . . ليعتبر كل واحد منكم نفسه حارسا للثورة. . . واجبكم تعقُّب هؤلاء الخونة، وإخراجهم من جحورهم. . . الموت لأبناء الأشراف. فقد استحقوا الموت منذ زمن بعيد. . . لقد امتصونا وتسلطوا على العمال وسخَّروهم لمصالحهم وحرموهم من كل الحقوق، وحبسوا بناتهم فى حجرات مظلمة، وكبَّلوهن بالقيود، وغطوا رءوسهن بأغطية النوم، وحرموهن من العلم والعمل، وكانوا أداة لتنفيذ رغبات الإقطاعيين. كما استغلوا فى هذا إيمانكم الدينى؛ فكل إقطاعى بإمكانه أن يتزوج ثلاثا بل أربع زوجات، وتصبح الزوجات الأسيرات المسكينات، أعداء فيما بينهن. . . أيها الرفاق، لافرق فى الحقوق بين الرجل والمرأة. . . أيها الرفاق، تستطيع نساؤنا الآن الخروج إلى الشوارع وإلى الحياة العامة بلا خوف من المشايخ. . . لقد تزوج الإقطاعيون بمن تهوى أنفسهم، وسلبوا الأرض من الفلاح، يحرث الفلاح الأرض، ويستولى الإقطاعيون والأشراف على المحصول. . . يعمل الفلاح وأسرته طوال العام، وفى النهاية يكون نصيبه حفنة من ذُرة أو قمح. . . ألم تسألوا أنفسكم أبدا، ما السبب فى أن ابن الإقطاعىّ يستطيع أن يتعلم فى المدارس العالية، وأن يسافر إلى أوروبا وأمريكا، بينما لا يستطيع ابن العامل والفلاح أن يفعل نفس الشيء. . ؟! ذلك لأن الإقطاعى والشيخ لا يرغبان فى إثارة هذا التساؤل، كى تظل جيوبهم عامرة بالمال. . . وإذا مرض الأب، فلابد أن يعمل أبناؤه بدلا عنه، وإلا أفلس الإقطاعى والشيخ؛ ففضيلة الشيخ يحذر الفلاحين والعمال قائلا:

ـ إن بناتكم ونساءكم لابد أن يقرن فى البيت ولا يبرحنه أبدا. يجب أن تحجبوا نساءكم، وأن يساعد الابن أباه فى العمل بدلا عن التعليم، فما جدوى أن يتعلم. . ؟! عليكم أيها الفلاحون أن تَفلحوا أرض الإقطاعى أولاً. . .

واستمر هؤلاء الشيوخ فى خداع شعبنا المسكين بكلام كثير كهذا. أيها الرفاق، يجب القضاء أولاً وقبل كل شيء على هؤلاء المشايخ وعلى جماعة إخوان الشياطين الرجعيين. لقد انتهى عهدهم وعهد تصديق كلامهم، فكل ما يقولونه كذب وهراء. وعندما نقضى عليهم، على أولئك المشايخ الدمى فى يد الإقطاعيين، عندئذ نكون قد قضينا على الإمبريالية أيضا.

كان الناس المجتمعون فى الميادين، يستمعون إلى خطب هؤلاء الشيوعيين وهم كارهون، والدم يغلى فى عروقهم لرؤية بناتهم وقد خرجن بالمينى جيب الأحمر. وأكثر من هذا، أن هؤلاء الشيوعيين، كانوا يخدعون البنات الصغيرات، ممن يناهز عمرهن الخامسة عشرة، بكلمات تعنى أن آباءهن يستغلونهن، وأن باستطاعتهن الآن التحرر منهم، والعيش بلا خوف من أحد. وكانت آلاف الفتيات المخدوعات، ينفذن ما يطلبه منهن الشيوعيون، بدون تفكير. كما سلبوا عقول الشباب بالأفلام والعروض الخليعة القذرة.

أما الآباء غير متحمسين للتعليم الدينى، ممن أرسلوا أبناءهم إلى المدارس الاستعمارية بأمل أن يصبح الواحد منهم طبيبا أو مهندسا أو طيارا، أصبح هؤلاء الآباء، يضيقون لتأخر أبنائهم خارج البيت، حتى ساعة متأخرة من الليل، وإذا سألوهم عن سبب تأخرهم..، كان الجواب الذى يتلقاه الأب هو:

ـ وما شأنك أنت..؟ نحن الآن أحرار... وسنعمل حتى منتصف الليل للقضاء على التعصب الأعمى وعلى الإمبريالية. ولن يقف أحد فى سبيلنا؛ ولا حتى أمُّنا. أفهمتَ هذا..؟

ومن هول المفاجأة ينهال الأب بالضرب على ابنه أو ابنته، ويستمر الحال على هذا المنوال عدة ليال، ويمنعه من الخروج. ورغم هذا كان يدرك أن زمام الأمر قد أفلت من يديه. وكان الابن بدوره يحكى لأصدقائه ولمعلمه الشيوعى، كل ما دار بينه وبين والده. فكان المعلم الذى رسم له هذا الطريق، يعطيه جهاز تسجيل ويقول له:

ـ خُذ هذا الجهاز وسجِّل عليه صوت والدك (أو أخيك الكبير) واحْضره لنا، واتْرُك لنا نحن أمر رجعيته.

وهكذا يكون الشاب قد لُقَن الدرس الأول فى الاشتراكية. وطبيعى بعد هذا ببضعة أيام يُزج بالأب المسكين فى السجن أو يُقتل.

وأخذ الفساد يدب فى كل أسرة؛ كل فرد فى الأسرة عدو للآخر؛ الأخت الكبرى تنتمى إلى حزب الشعب، والأخ الأكبر برشمى، والآخر: إما محايد، أو ينتمى إلى مجموعة أخرى. والأمهات والآباء أمام الجميع صامتون، عاجزون... وإذا تَفَوَّه أحدهم بكلمة واحدة، لَدَغَه الثعبان الذى رباه فى حضنه.

* * *

اعتصم الأستاذ محمد سيد وإخوانه المجاهدون بجبل «على شانج». وكانوا يشنون غاراتهم الليلية على المليشيات المسلحة، مما أثار غضب الشيوعيين المتعطشين للسلطة. وانشغل الموالون للروس بإقامة الملاهى فى كل مكان. وبذل العملاء كل ما فى وسعهم للإيقاع بهؤلاء المجاهدين الذين قضوا مضاجعهم. واتُّخِذَت الاستعدادات اللازمة فى كل مكان للقبض على من أطلقوا عليهم اسم الرجعيين.

وذات يوم توجه الخال الخائن إلى المدرسة التى كان يعمل بها الأستاذ سيد، فعرف أنه طُرد منها، وتأكد من صحة ما توقعه. وكانت سعادته فى ذلك اليوم بغير حدود. كان يفكر فى ثأره من عائلة الشيخ مريد. توجه الخال بخطى وئيدة قاصدا بيت الأستاذ. وعند الباب أعاد تنظيم هيئته، وحاول أن يحتفظ برأسه مستقيما، وقطَّب جبينه، وتقمَّص الجدِّية. ولم ير ضرورة للاستئذان قبل الدخول، فوضع يديه متشابكتين وراء ظهره، وتقدم فى اتجاه ذلك الجنب من سقيفة البيت.

كانت رائحة الخبز اللذيذ تملأ ساحة البيت، والهواء مفعم بالدخان ورائحة الخبز، بينما جلست أخته - والدة الأستاذ سيد - بجوار أحد جوانب الفرن تنحنى تارة... وتعتدل تارة أخرى، وهى تسوِّى الخبز فى الفرن، وقد أدارت ظهرها ناحية الباب، بينما الشيخ مريد جالس أمامها، محدقا فيما داخل الفرن. ولما سمع الشيخ مريد وقع الأقدام، رفع رأسه وعيناه مفعمتان بالحزن، ونظر محدقا فيمن يقف أمامه. فى البداية لم يتبين أنه الخال الخائن، وعندما تبينه، امتلأت عيناه بالحقد، وهمَّ بأن يطرده، لكنه كبح جماح نفسه، بينما الخال يضحك ضحكة بلهاء قذرة... باردة.

تقدم الشيخ مريد ناحية الخال الخائن، بدون أن يفقد مظهره، وقال:

- مرحبا. ما الذى أتى بك إلى هنا..؟

وبسرعة أدارت والدة الأستاذ رأسها، فرأت الخال، وتفحّصته باشمئزاز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. كانت امرأة قروية، قوية البنية، مملوءة إيمانا وقوة... إنها لا تخشى أحدا غير الله. تكلمت وكأنها تبصق:

- أبو الكافر. بأى شىء جئت تهذى هذه المرة؟ هيا انطق..؟

فقال ضاحكا:

- ياحبيبتى، إنها المرة الأولى التى آتى فيها إلى هنا..؟! لِمَ خوفك..! أم أن فى الأمر شيئا؟!.

. انتفضت والدة الأستاذ مكانها، واقتربت منه، وأمسكت بتلابيبه قائلة:

«نعم فى الأمر شىء، أو بالأحرى أشياء... اغرب عن وجهى. هيا اخرج. لاأريد رؤيتك هنا. هنا بيت المسلمين، وليس بيت الكافر. اذهب إلى حال سبيلك، وافعل كل ما فى وسعك. أنا لا أخاف حتى من ذلك الخنزير المدعو «تراقى». اذهب وأبلغهم أن زوجة الشيخ تمردت، ربما يُنعمون على ابنك برتبة أخرى، أو ربما يتصدقون عليك ببعض النقود ثمن وظيفتك النجسة... وأخيرا، بأى حق تدخُل هذا البيت..؟ إنى أستعيذ بالله من أن أكون أختا لرجل مثلك من إخوان الشياطين. أنا وأنت مثل قالبين من القرميد صُنعا من نفس التراب، وفى نفس القالب، وبعد ذلك وضعوا أحدهما فى جدار جَامع، والثانى فى جدار حانة... الفرق بينى وبينك هو نفس الفرق بين الجدارين. أنا وأنت أبناء أم واحدة، وأبٌ واحد، فاخترتَ أنت طريق الشيطان، طريق الهلاك، واخترتُ أنا الصراط المستقيم الذى بيّنه الله...

قالت هذا، ثم التقطت حزمة حطب ثقيلة من فوق الأرض، وأخذت تلوّح بها فى الهواء وهى تصيح:

- اخرج، اخرج عليك اللعنة، اخرج أيها الفاجر، اخرج وإلا أسلتُ دمك.

نهض الشيخ مريد من مكانه، وأخذ من زوجته حزمة الحطب، وصاح فى الخال الخائن:

ـ اخرج من هنا، وانصرف وكُن فى نفسك. من الخير أن تخرج من هنا. ثم إننى لا أدرى ما الذى بقى بيننا وبينكم..؟ ألم ينته كل ما بيننا..؟ طريقنا شىء وطريقكم شىء آخر.

ارتبك عاثر الحظ المسمى الخال. كان فى قمة غضبه، لا يدرى ماذا يفعل، فقال:

ـ حسنٌ، سأخرج. لكن فليبصق الناس كلهم على وجهى إن نجوتم من قبضتى. أنا أعرف أين ابنك، ولحساب من يعمل. أنتم رجعيون أقذار، عملاء الإقطاعيين وأعداء الشعب.

ثم اندفع خارجا من الفناء وهو يرغى ويزبد، بينما أطل الجيران برءوسهم من الأبواب، وكأنهم قلقون لمعرفة ما جرى.

* * *

مرَّت بضع دقائق، وغشى السكون المكان. كان الشيخ مريد وزوجته يجلسان فى ركن السقيفة، يغشاهما صمت وحزن غريبان. وبعد برهة، بدأت الزوجة تتلفت حولها فى شك وريبة، ثم نهضت من مكانها فى حذر شديد، واتجهت إلى داخل البيت. كانت تحمل الخبز الذى خبزته فى سلة. فتحت باب البيت بحذر وهدوء. كان البيت مظلما بسبب إغلاق نوافذه. اجتازت الحجرة، ودلفت إلى حجرة أخرى، وأغلقت الباب من ورائها، ثم نظرت إلى الكومة الكبيرة التى تكونت من المراتب والألحفة، وألقت عليها نظرة شاملة، ثم تركت السلة التى فى يدها، وسحبت من الكومة لحافا ومرتبة أو مرتبتين ووضعتها جانبا، فظهر من ورائهم نافذة صغيرة بعض الشىء... دفعت النافذة فانفتحت. خلف النافذة كانت غرفة مظلمة يضىء بداخلها مصباح خافت إلى أقصى درجة. حشرت الأم نفسها من النافذة ودخلت منها بصعوبة بالغة، وألقت بنفسها إلى داخل الغرفة، ثم رفعت

المصباح الذى على الأرض، ثم تقدمت ناحية الركن المظلم من الحجرة. وهناك كان على الأرض مرتبة مفرودة ولحاف؛ فرفعَت ببطء جانبا من هذا اللحاف.

كانت الأم تسمع صوت أنفاسها يتردد داخل الحجرة، والأستاذ سيد راقد فوق الفراش، ذابل الوجه. فتح عينيه بتثاقل وضعف، ونظر فى مجال محدود. كان عاجزا عن التعرف على من يقف أمامه. ثم أغلق عينيه وغاب عن الوعى، بينما أمه تذرف دموعها فى صمت.

فقد حدث قبل أسبوع، أن صَعدت بضع مجموعات من جنود وضباط تراقى الخونة، جبل «على نجار»، للقبض على الأستاذ وإخوانه المجاهدين، أحياءً أو أمواتا. وكان الأستاذ ورفاقه خلال ذلك الأسبوع، قد نزلوا من الجبل لمهاجمة منازل الميليشيات المسلحة العميلة. وذات ليلة هاجم الأستاذ منزل أحد هؤلاء العملاء، فصاح ذلك العميل الوضيع:

ـ سأستسلم؛ لكن ليدخل أحدكم معى أولاً لأسلمه السلاح، ولا تظنوا أنى فاعل شيئا به.

فهم الأستاذ سيد أن ما يحدث ما هو إلا خدعة، فردَّ عليه قائلاً:

ـ لا، بل اخرج أنت أيها الوضيع، وسلِّم سلاحك هذا الذى تشهره ضدَّ الإسلام. ثم لاتكتفى بهذا، فتفكر فى خداعنا..!!! حقا إنك لوضيع... اخْرج وإلا أخرجناك بالقوة.

فَهم الرجل أنه مقتول لا محالة، فأطفأ مصابيح البيت، وانطلق يجرى خارج البيتَ بأقصى سرعة، وهو يطلق النار من مدفعه الكلاشينكوف الروسى بشكل عشوائى، يطلقه فى كل اتجاه وهو يسعى فى سبيل الهرب. أدرك الأستاذ وأصحابه حيلة ذلك الخائن، فأخذوا بدورهم يطلقون النار عليه بدقة من بنادق الصيد التى فى أيديهم. كان ضروريا أن يُصيبوه وأن يأخذوا السلاح الذى فى حوزته. فحاجتهم ماسة إليه، ولزاما عليهم أن يطردوا العدو بذات سلاحه.

كان القاتل العميل يرتعد خوفا. فقد أدرك أنه محاصر من جميع الجهات، فاستمر يطلق النار بغير توقف، لعل مفرزة قريبة تسمعه، فتسرع لنجدته. أمَرَه الأستاذ للمرة الأخيرة أن يُلقى سلاحه ويستسلم. فبدأ العميل يتلفت حوله خائفا بعد أن أدرك أنه لا مفر؛ وألقى بندقيته على الأرض وقد أسقط فى يده. فتقدم الأستاذ من بين ظلال الأشجار، واقترب من الجندى العميل ببطء وحذر. لكن سبق السيف العذل. فذلك العميل كان يهدف إلى كسب الوقت لكى يتمكن من الهرب، وقد نجح فى هذا بالفعل. ذلك لأن الظلمة انقشعت، ولم يفطن المجاهدون لخداعه. وكان بعض أتباع الأستاذ لا يحملون بنادق، إنما بلطة وما شابهها.

سمع أحد تلاميذ الأستاذ صوت سلاح، فصاح لينبههم للأمر، فتنصت الجميع؛ حقا إن صوت سلاح يُسمع من على بعد، قال الأستاذ:

- لقد خدعنا هذا الوضيع. ويبدو أن مفرزة سمعت صوت سلاحه، وأنها فى الطريق إلى هنا لنجدته احذروا، مازال أمامنا وقت للنجاة، لكن علينا أن ننتهى من هذا أولا.

وسمع العميل أيضا صوت السلاح يقترب بشكل مضطرد... فقام بحركة مفاجئة وسريعة، وأخرج مسدسا من خصره، وأطلق بضع طلقات على الأستاذ، الذى كان على مسافة بضع خطوات منه. وبنفس الحركة السريعة، لاذ العميل بالفرار ناحية الأشجار التى وراءه، بينما سقط الأستاذ مضرجا بدمائه.

أفاق زميل الأستاذ من ذهول المفاجأة، وأخذ يُطلق النار من بندقية الصيد فى اتجاه القاتل الذى كان يفر من أمامه كالخيال. وانطلقت من خلف الأشجار صرخة مدوية اخترقت الآذان.

هُرع التلاميذ والمجاهدون ناحية الأستاذ، والتفوا حوله؛ فقال لهم بصوت واهن:

- ارفعوا... ارفعوا الكلاشينكوف الذى على الأرض... هيا... اهربوا... اتركونى... على الأرجح أن حياتى انتهت هنا... حاولوا أن تهربوا، هيا اهربوا...

لكن أيتركونه . . ؟! . . . وبينما يحاولون رفع الأستاذ، كان عساكر وشُرطة حكومة تراقى يهبطون من السيارات الجيب ويهرعون ناحية مصدر صوت السلاح .

قال الأستاذ بصوت متحشرج وكأنه يتوسل لزملائه :

ـ بالله عليكم، اذهبوا واتركونى . . . خذوا معكم الكلاشينكوف . لاتُفرِّطوا فيه . . . هيا كان الله معكم . . . ادعوا لى . . . انتبهوا، فقد اقتربوا . . . أنُسلِّم أنفسنا هكذا جُملة . . . فلنردَّ عليهم كيدهم . آه . . . بالله عليكم هيا انهضوا . . . دعكم منّى . . . لاتحملونى معكم . . . لا، لاتهربوا من ناحية واحدة . . . وإنما من اتجاهات شتى .

ثم أغمض عينيه . فقال مدرس من زملائه :

ـ وداعا يا أستاذى . وداعا يا أخى العزيز . كان الله فى عونك، وليمنحنا القدرة لنثأر لك ولإخواننا بإذن الله .

ثم رفع الكلاشينكوف التى على الأرض، وقال لأصدقائه :

ـ هيا بنا . توكلنا على الله . ليهرب كل واحد منكم من ناحية . ولنحرص ألا نقع فى أيديهم .

فصاح أحد زملائه :

ـ مستحيل، لن يحدث هذا ما بقينا على ظهر الدنيا . لن أترك جسد الأستاذ لهؤلاء الكفار .

أجاب صديقه :

ـ هذا ما أمر به الأستاذ . لقد أصيب فى رأسه، وقد لا نراه مرة أخرى . علينا إذن أن نلبى له رغبته الأخيرة . يجب ألا نفقد هذا الكلاشينكوف . هيا انهض ودعك من هذا التهور .

وبذلك نجح فى إقناعه بالمضى معهم . وتمكن المجاهدون من الاختفاء بين الأشجار تحت جنح الظلام . أثناء ذلك وصل جنود تراقى إلى حيث يرقد الأستاذ

يئن ومضرجا فى دمائه. أدار أحدهم وجه الأستاذ، وأخذ يمسح الدماء التى تنزف من رأسه بمنديل كان معه، فنهره رقيب منهم بقوله:

ـ ما هذا..! ماذا تفعل..؟ دعك من هذا الشرير، ألا ترى لحيته..؟! إنه من الرجعيين، وإصابته لابد أن تكون قد حدثت أثناء اعتدائه على رجالنا.

قال الرقيب هذا الكلام، ثم انحنى كالضبع فوق الأستاذ الراقد على الأرض مغمض العينين، وأمسكه من شعره المخضب بالدماء، وقال وهو يعض على نواجزه:

ـ لقد وقعت فى أيدينا، فانتظر ما سيحل بك من عذاب. أتَوَدّ أن تُفسد علينا ثورتنا..!!

جرى كل هذا أثناء شروق الشمس. وعمَّ النور المكان... أقبلت حوالى خمس سيدات يهرولن ناحية العسكر، ويولولن فى جزع. صرخت إحداهن بجندى يمسك خنجرا فى يده:

ـ ماالذى أخَّركم إلى الآن..؟ ماذا أصاب زوجى؟ لقد خطفه الأشرار. أظَهَرتم الآن فقط، بعد أن أشرقت الشمس..؟! أيها الجبناء السفلة. أين وعودكم..؟؟ قلتم لنا خُذُوا السلاح ولا تخافوا شيئا. نحن نحميكم. هاتوا لى زوجى، هاتوووووه.

وفجأة... اصطدمت قدمها بجسد الأستاذ الراقد على الأرض وفمه غارق فى الدماء. ففتح عينيه ورأى مايدور حوله... وبدأ الناس يتدفقون من البيوت المجاورة. كان الأستاذ مازال على قيد الحياة رغم إصابته فى رأسه والدم الذى يتدفق منه، التَف الناس حول الأستاذ، وقد غطت الدماء وجهه، فلم يتعرف عليه أحد. ومن معجزات الله سبحانه وتعالى أن الأستاذ رغم إصابته، كان بمقدوره أن يرى ويسمع كل ما يدور حوله. بدأت النساء فى الصياح والتساؤل، عمن يكون هذا الراقد فوق الثرى..؟؟ صاحت تلك المرأة التى كانت تتصدر صراخهن:

ـ إنه شرير... شرير. لكن أين زوجى..؟ أين هو..؟ هاتوه... هات...

والتقطت إحداهن حجرا، رمت به الأستاذ، كذلك فعلت الأخريات، وأخذن يُكلْن له الضربات المتلاحقة. . ! فيرمونه بكل ما تقع عليه أيديهن؛ بالقرميد والَخشب والعصى والحجارة. ساد الهرج والمرج. وفجأة اندفع رجل ضخم الجثة، وسط هذه الحيرة التى استولت على الجميع، وأخذ ينهر النساء قائلا:

ـ مهلا، ما هذا. . ؟ توقفن. ماذا تفعلن. . ؟! اوقفوا هؤلاء المجنونات.

ثم أمسك بشعر أول امرأة أمامه، وطرحها أرضا بكل قوته، ثم التفت إلى الرقيب يقول له موبخا:

ـ انتبه أيها الأبله. إنه ما زال حيا، ومن الأفضل أن يظل حيا.

قال الرقيب وهو يبعد النساء عن المكان:

ـ نعم، نعم أيها السيد. . . هيا تراجعن. . . إبعدن.

فقالت إحداهن وهى تصرخ:

ـ آه يا زوج أختى. . . ماذا فعل بك هؤلاء الملتحون الأقذار، آه. . .

ووسط هذا الزحام، أصاب حجر رأس امرأة، فصرخت ثم سقطت على الأرض. ولما أصابت الحجارة بعض العساكر، أدرك الرقيب خطورة الأمر، وما سيؤول إليه. فلوّح بالكلاشينكوف الذى فى يده، وصاح يمطر العساكر بأوامره:

ـ أطلقوا النار على كل من يقترب، وعلى من لا يبتعد مهما كان.

فالتفت الرجل ضخم الجثة، إلى النساء، وصاح فيهن قائلا:

ـ هيا، ابتعدن عن هنا، انصرفن. ثم التفت إلى الرقيب قائلا:

ـ هيا، وأنتم أيضا انصرفوا من هنا قبل أن يفتك الناس بكم، فمن الممكن أن يحدث مالا تُحمد عقباه. وسأقوم أنا بنقل الرَجل إلى السيارة الجيب. هيا، أسرعوا، وهناك فى مكان المفرزة يمكن أن نفهم كل شيء بشكل أفضل.

وفى هذه الأثناء، صاح فتى من وسط الزحام قائلا:

ـ يا هذا، هناك ميت وراء تلك الأشجار.

فانطلق الجميع وكذلك الرقيب فى اتجاه منطقة الأشجار التى أشار اليها الفتى، وتجمع عندها الناس. . . وأطلقت إحدى النساء صرخة مدوية وصاحت:

ـ إنه هو، هذا، هو بعينه، آه ياربى، لقد قتلوه.

وتعالت صرخاتها، وبدأت الأخريات فى شد شعورهن والصراخ. . . عندئذ أدرك الناس أن هذا الميت هو العميل القذر.

وبينما الناس مشغولون بالجثة التى عثروا عليها مؤخرا، قام الرجل ضخم الجثة ـ وكان واقفا بجوار الأستاذ ـ برفع الأستاذ من فوق الأرض بقوة خارقة، وحمله فوق كتفه وقال لرقيب آخر صغير جدا، كان بجواره ويحمل الكلاشينكوف:

ـ هيا، إنى سأنقله إلى السيارة الجيب، واجمع أنت الرقيب والعساكر. ويحسن أن تبتعدوا من هنا الآن قبل أن تحدث لكم مصيبة. ثم نعود فيما بعد إلى مكان الحادث. بالدبابة. . هيا لاتتلكئوا، فالنساء ثائرات. . . هيا. . .»

قال هذا واختفى بين الأشجار وسط دهشة الرقيب والجنود. . . استغرق الرقيب فى الدهشة مدة دقيقتين، ثم جرى ناحية الرقيب الآخر الواقف بجوار الجثة، وقال له:

ـ هيا. . . يجب أن ننصرف من هنا، فنحن لا نأمن البقاء هنا بدون دبابات.

وبينما هُم يبتعدون عن مكان الحادث، سأ ل أحدهم الآخر:

ـ أين جثة الشرير. . ؟!

ـ إنه. . . إنه حمله إلى السيارة الجيب.

ـ من أيها الأبله. . ؟!

ـ ألا تعرف ذلك الرجل الذى طرد النساء!! إنه هو. . .

قال الرقيب:

ـ عليك اللعنة، أين. . ؟؟ اجير، يجب أن نلحق به.

اندفع الرقيب والعساكر فى هبوط التل كالصاعقة وكانت حوالى خمس عربات جيب تقف بجانب الطريق، ينتظر بجوارها حوالى ستة عساكر، وقد نفد صبرهم. سألهم أحد الرقباءوهو يلهث:

- إنكم عساكر لا فائدة تُرجى منهم... هيا انهضوا، هل مرَّ من هنا شخص يحمل على ظهره جثة رجل..؟؟

نظر العساكر إلى بعضهم فى دهشة... فصاح الرقيب بحدة:

- عليكم اللعنة، هيا انطقوا!!

أجاب أحدهم وهو يتلعثم:

- رجل..!! لا، لا لم يمر... لم نر أحدا هكذا...

ضرب الرقيب بقدمه غاضبا، وقال وهو يكاد ينفجر من الغيظ:

- تبًّا لكم. لقد ضيَّعْنا فرصة القبض على هذا الوغد، كما أنه خدعنا... يا له من ماكر.

* * *

سبق السيف العذل. قدَّر الله وما شاء فعل. ما أجمل ما حدث. فالله لا يتخلى عن المجاهدين فى سبيله، والخير هو ما يختاره الله... لكننا لا نعرف أين الخير.

* * *

لا تقولوا أن هذا كذب... ولا تقولوا عنه أنه محض خيال... فالله سبحانه وتعالى قادر على كل شىء... ألم يُنْجِ سيدنا إبراهيم من النار..؟ ألم يُنْجِ رسولنا الحبيب - عليه الصلاة والسلام - من المشركين بأن نسج العنكبوت خيوطه لتحميه وكأنها جدار..؟... لا شك أن الأمر كذلك. إن الله أرحم بعباده من الأم على وليدها... إنه عالم ومطلع على كل شىء... من كان هذا الرجل..؟! الرجل الذى هرَّب الأستاذ أمام عيونهم جميعا، وحمله إلى ناحية ما..!!... وكلما سأل الرقيب أحدا عنه، يجيبه قائلا:

- وكيف لنا أن نعرفه..؟!... لعله غريب عن هنا...

* * *

على طريق «صوربى» الذى يربط بين «لاغمان» و«كابول»، تطل ربوة عالية، فوق هذه الربوة ضريح أخضر اللون يراه كل من يمشى على هذا الطريق من أوله شاء أو لم يشأ؛ ذلك لأن هذه الربوة عالية جدا. أما هذا الضريح فهو لشيخ عظيم من شيوخ النقشبندية الذين يلقبون بلقب «خان كول بابا» ويقول الناس أنه ولىٌ من أولياء الله الصالحين. والقصص التى يرددها الكبار، تُطيل الحديث عن همّته وطهارته، حتى صارت سيرته معروفة ومتواترة بين الناس.

ذات يوم حمل أحد الشيوعيين بلطة، وصعد الربوة فى منتصف الليل. ولما تأكد من خلو المكان، ضرب الضريح المبارك بالبلطة ضربة، وثانية، ولما همَّ بالثالثة، أطاحت به يدٌ قوية، فطرحته أرضا. فهرول المشرك، وهبط الربوة وهو يصرخ هلعا وبلغ منزله وهو يلهث، ثم آوى إلى فراشه وهو يرتعد خوفا وذعراً. وفى الصباح دخل الناس منزل هذا البرشمى، فوجدوا زوجته ميتة، أما هو فوجدوه مشلولا... وأدركت أسرته كُنْه ما حدث. فقد لقّنه الله جزاء استهانته بمن يحبهم من عباده الصالحين. أما ذلك الرجل الذى هرَّب الأستاذ، فلم يكن سوى واحد من المريدين المخلصين الذين لم ينقطعوا لحظة واحدة عن زيارة ضريح هذا الشيخ الصالح. كان يعرف الأستاذ وأصدقاءه، وطالما اجتمع الأستاذ وأصدقاؤه فى مناطق الأشجار المحيطة بالضريح، ليقرروا خططهم.

كانت عائلة الشيخ محمد مريد، نائمة ليلا عندما سمعوا طرقا شديدا على باب القلعة. فاستيقظ على إثرها الشيخ مريد وهو يتمتم:

- خير إن شاء الله.

وأشعل المصباح، كما استيقظ كل مَن فى البيت. وصل الشيخ إلى الباب حاملا المصباح فى يده، وصاح قائلا:

- من الطارق..؟

جاءه الرد بصوت منهك:

- أيها الشيخ، افتح الباب.. أنا، أنا أحد أتباع الشيخ.

تعرَّف الشيخ مُريد على الصوت، ففك السلسلة من الباب وفَتَحَه، ثم نظر إلى الخيال الفارع الداخل من البا ب حائرا، وإلى الشيء الغريب الذى يحمله فوق ظهره. رفع الشيخ المصباح إلى أعلى ليتمكن من رؤيتهما جيدا، وأمعن النظر. . . عندئذ فقط عرف أن الجريح فاقد الوعى فوق ظهر الرجل، هو ابنه الأستاذ، فقال بصوت متحشرج:

ـ ابنى محمد سيد، أهو أنت!!

ـ اسْكت، اسْكت. اخْفِض صوتك. هيا اهدأ ودلّنى على المكان السرىّ الذى سنُرْقده فيه ليستريح.

خَفَضَ الأب المؤمن الصابر الوقور، ضوء المصباح كأن شيئا لم يكن، وقال:

ـ اتبعنى.

ثم اجتاز الفناء الأمامى، ودار خلف البيت، ناحية بيت التِّبْن، والرجل يتبعه. وأرقدا الأستاذ فوق التبن بحذر؛ فقد كان الدم ينزف من رأسه نزفا قليلا ومستمرا. رفع الأب فتيل المصباح، ثم وضعه فى جانب. فى هذه الأثناء بالضبط، انفتح باب بيت التبن، ودخل محمد فريد، ومحمد وحيد، ومحمد مزيد. وتعلَّقَتْ عيون الإخوة الثلاثة، بأخيهم الأكبر المُسَجَّى فوق التبن. لم ينبس أحدهم ببنْت شَفَة، وكأنهم كانوا يتوقعون شيئا كهذا. . . وأخْرَجَهم من وقْعِ هذه المفاجأة صوت طرقات على باب بيت التبن. فنظروا إلى والدهم يسألونَه فى حيرة وتردد:

ـ أمّنا بالباب تنتظر فى قلق، بماذا نجيبها!!

قال الأب بصوت منكسر، وعيناه مصوبتان ناحية الأستاذ:

ـ فلتنتظر قليلا، ثم نشرح لها ما جرى. لكن، تصرفا معها الآن إلى أن ترى بنفسها.

خرج محمد وحيد. كانت أمه وأخته فى الفناء المظلم تنتظران فى قلق وانفعال، وبمجرد خروجه، تقدمتا نحوه تسألاه:

ـ خير إن شاء الله، مَن القادم. . ؟ ولماذا دخلتُم بيت التبن. . ؟!

أجابَهُما :

ـ أرسَلَ أخي سلاحا ثقيلا غنموه من الجبهة . وأوصى أن نخبئه في بيت التبن . هيا ، انصرفا من هنا . أمي تعرفين أن بالبيت غرباء ، ثم إن كل واحد منهم يسمع أقل همسة . . . هيا يا أمي ، هيا اذهبي .

لم تطمئن الأم والبنت لهذه الكلمات ، وانصرفتا على مضض . كان القلق والتردد يسيطر عليهما . تَتَبّعَهما محمد وحيد بنظره وقلبه ينفطر لرؤية أمه وقد ارتسم عليها الحزن . . . وانَحَدَرَت دمعتان من عينيه ، فجففهما بيده ودخل بيت التبن .

انحنى محمد فريد فوق رأس أخيه الجريح ، ومسح الدماء من على وجهه بقطعة قماش . . . بينما خرج أخوه محمد مزيد وهو مضطرب ، وجرى ناحية البيت لعله يتمكن من عمل شيء .

تكَلَّم الشيخُ الذى جاء بالأستاذ ، حكى ما أصابه قائلا :

ـ كنتُ أتلو القرآن ليلا في الضريح . كانت عيناى تغفوان ، وأنا أجاهدُ نفسي كي لايغلبني النعاس . ثم حملتُ المصحف الشريف ووضعتُه في مكانه ، وانزويتُ في ركن مستندا بظهرى إلى الحائط ، وبدأتُ في ترديد الذكر . أثناء ذلك غَفَت عيناى ورأيْتُ رؤيا ؛ مكان شديد الظلمة وفي هذا المكان المظلم صوت سلاح . . . وأنا أجرى في الظلام ، أجرى بكل قوتي ، فأرى من بعيد نورا فوق ربوة أحال المكان كله إلى نور وضاء . . . بدأتُ أجرى في اتجاه النور . كان صوت السلاح يقترب . . . جريتُ في الظلام فوصلتُ إلى الربوة في قفزة واحدة . . . آه يا إلهي . كان هناك شخص ذو مهابة يقف وفي يده عصا ، وينظُر إلىّ بتركيز وغضب . وقد أحال نور وجهه ، الظلمات كلها إلى نور . . لقد عرفته ، يا ربي . . أخيرا رأيته وإن كانت رؤيتي له في منام . . إنه شيخنا . . جريتُ نحوه أريد الاقتراب منه ، فقال لي :

ـ قف ، وانظر وراءك . . !

كنتُ أنظر ورائى وأنا منفعل . . . ربوة أخرى . . هناك أيضا يتدفق النور . وأذْكُرُ أننى رجعتُ إلى شيخى وأنا خائف وأنظر إليه . . . كان لا يزال ينظر إلىَّ نفس النظرة المركَّزة . ثلاث مرات يشير بالعصى البيضاء التى فى يده ، إلى الربوة التى تلمع أمامه مثل النور ، ويقول :

ـ اجر إلى هناك . اجرِ دون توقف . . هناك من ينتظرون المساعدة . . اجرِ . اجرِ الآن . حَذار أن تتأخر ، انهَض . . . انهض . . . انهض . . .

فاستيقظتُ مشدوها ، وانتفضتُ ، كان كل جزء فىّ يرتعش . نظرتُ إلى الضريح . . لا صوت . لا صدى . لكن كل حجَر كان يهمس لى قائلا انهض ، انهض ، انهض ، وبدأ صوت سلاح يُسمع من بعيد . . من بعيد جدا . صوت السلاح خلصنى من النوم ومن الدهشة نطقتُ باسم الله وتوضأتُ .

وصلتُ إلى أقرب منزل للضريح ، وطلبتُ دراجة من الأسرة التى أعرفها ، فأعطوها لى على الفور . . أدهَشَهم أن أطلب دراجة فى منتصف الليل . كانت أسرة مؤمنة ، أعرف أفرادها جيدا . وخَرَجْتُ إلى الطريق وكأننى أقفز بالدراجة . . . صدِّقنى يا شيخ كأنَّ هناك أحدا يجر الدراجة .

لم أكن أعرف إلى أى اتجاه أنا ذاهب . وقُبَيْل الصباح وصلتُ إلى ربوة . . . ياإلهى ، إنها الربوة التى رأيتها فى الرؤيا . . صليتُ صلاة الصبح ، وأخفيتُ دراجتى بين الأدغال والأشجار ، وبدأتُ فى صعود الربوة ، كان صوت السلاح يأتىِ من أعلى بين الحين والآخر . وأثناء ذلك ، سمعتُ صوت من يصرخون ويصيحونَ فى الساحة . . . كان الأستاذ يرقد على الأرض مُضرجا بدمائه . . أخذتُ أرقبهم خلسة من مكانى . وبعد قليل جاء أتباع حزب الشعب . كانت النساء تبكى وتُمطر الأستاذ بالحجارة . وفهمتُ أنهن من أتباع حزب الشعب . وفيما بعد ، ظهرتُ ووجدتُ السبيل لتهريب الأستاذ .

حكى الرجل الحكاية كلها وسكت . . . صمت الشيخ برهة ثم التفت إليه وقال :

ـ الحمد لله، الله أكبر، لله مرجعنا وإليه المصير . . . لكن ماذا لو كانوا عرفوك . . ؟ . . .

أجابه الرجل :

ـ إن كل شيء مرهون بإرادة الله . أنا لا أخاف من الكفار، وإنما من غضب الله . . هيا أستودعكم الله، حاولوا أن تجدوا له طبيبًا . . . على كل حال فإن الصباح قد أوشك . . . يجب ألا يرانى أحد وأنا أخرج من هنا . هنيئًا لك أيها الشيخ، أصبح ابنك مجاهداً فى سبيل الله، أرجو أن يكون الله قد أحسن به إليك . والواقع أن ذلك العميل الخائن الذى أصاب الأستاذ قد نَفَق . والآن يجب أن أنصرف . . . تصرفوا بحذر حتى لاتثيروا شكوكهم، ولاتدعون من يثير ريبتكم .

قال الرجل هذا وغادر البيت . .

* * *

علمَت والدة الأستاذ وأخته بالحادث فى الليلة نفسها . فى بادئ الأمر أصابهما الجزعَ، لكنهما سرعان ما تمالكتا نفسيهما، وعملتا على مساعدة الأستاذ . ليس فى تلك الناحية طبيبٌ مؤمنٌ أبدا، أبدا بمعنى أبدا . فإما طبيب خائنٌ أو جبان أو أحمق يعيش بزعم أنه محايد .

وقف الشيخ مُريد وأفراد أسرته عاجزين، يتدبرون أمرهم . لكن لم يكن بوسعهم عملٍ شيء . لم يفتح الأستاذ عينه ولا للحظة واحدة . كل البيوت من حولهم تغصُّ بالشيوعيين الخونة . . . وأسقط فى أيديهم . وسط هذه الحيرة، سمعوا طرقا على الباب . فتبادلوا نظرات الدهشة . . . تقدم الشيخ ناحية باب الفناء بخطوات مترددة . . . بينما استعد الأبناء ببنادقهم ؛ وهى بنادق صيد، ووقفوا متأهبين . أمسك الأب الباب بيدين مرتعشتين، وصاح :

ـ من الطارق . . ؟!

جاءه الرد بصوت ضعيف وخافت جدا :

ـ أنا يا أبى، أنا محمد شهيد. أرجوك، افتح الباب.

تجمد الأب فى مكانه متمتما:

ـ كيف يحدث هذا، يا ربى. . إن الحمد لله.

كرَّر محمد شهيد الطَّرْق على الباب، ففتحه الشيخ بيديه المرتعشتين من فرط الدهشة، ونظر إلى ابنه نظرة شوق، ثم تعانقا.

كان محمد شهيد يغطى رأسه بغطاء كبير، والابتسامة تعلو وجهه، ويمسك فى يده حقيبة يد وحقيبة سفر. . أغلق الأب الباب بالسلاسل، ورجع إلى ابنه مشيرا إليه أن يصمت. ثم تقدم ناحية بيت التبن، وخلفه محمد شهيد وقد ملكته الدهشة. وقبل أن يبلغا غرفة التبن، تضاعفت دهشته عندما رأى أخويه مزيد وفريد متأهبين بسلاحهما، وكأن فى الأمر شيئا. أما الأخوان فلم يتمالكا نفسيهما من الفرحة لرؤية الدكتور محمد شهيد، فتعانقوا بشوق، والحيرة تملأ وجوههم. ودخلوا غرفة التبن. ترك محمد شهيد حقيبة السفر التى فى يده واستدار إليهما قائلا:

ـ ماذا هناك، استحلفكما بالله، لماذا تنظران إلىَّ هكذا. وما هذا السلاح الذى تتأهبان بحمله. . ؟ . . هل بدأ الجهاد هنا أيضًا. . ؟ . . ولماذا جئنا إلى غرفة التبن ولم ندخل إلى البيت. . ؟!!.

وقف الجميع مطرقى الرأس، فاقترب والده منه، واصطحبه ناحية التبن، وهو يقول:

ـ اخفض صوتك يا بنى، وسأخبرك بكل شىء. . تعال معى إلى تلك الناحية.

ثم أشار إلى الأستاذ سيد الراقد على الفراش، مغطى باللحاف، وقال:

ـ جرح أخوك فى الجهاد جرحا خطيرا. وقد نقلناه سرا إلى هنا لنخبئه. لقد جاءوا به الليلة. وخيرا أنك جئت. فقد كنا نبحث عن طبيب. لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرسلك لنا الآن. الحمد لله. الأمل فى الله لا ينقطع وإن كنت لا أظن أن أخاك سيعيش، لأنهم أصابوه فى رأسه برصاصة اخترقتها وخرجت من الناحية الأخرى.

كان محمد شهيد يستمع إلى والده مشدوها. ثم تقدم ناحية أخيه، وكشف اللحاف عن رأسه، وأمعن النظر إلى أخيه المسجى فوق الفراش، غائبا عن الوعى، لا يدرى ما يدور حوله. فانهمرت الدموع من عينيه، ولم يتمالك نفسه فأجهش بالبكاء. وبعد فترة استعاد هدوءه، وانتفض من مكانه، واندفع بسرعة ناحية حقيبته فى ركن الغرفة.. عليه أن يبذل قصارى جهده لإنقاذ أخيه. ورغم شدة الإصابة، فإن الأمل معقود على الله سبحانه أولا وقبل كل شىء.. سيبذلون جميعا كل ما فى وسعهم لمساعدة أخيهم وإنقاذه... يجب أن يعش لخدمة قضيتهم.. قضية الإسلام.

مرت بضع ساعات، وانتهى الدكتور شهيد من عمل إسعافاته، ثم التفت إلى والده الواقف إلى جواره، فوجده مهموما ومستغرقا فى التفكير.. واستدار ناحية أمه، فوجدها شاحبة الوجه، مرهقة، تعلو وجهها تساؤلات كثيرة.

«أمى» قالها بهدوء وهو يتقدم ناحيتها:

- أمى، لا تحزنى، ستتحسن صحته بإذن الله. ادع له، واشكرى الله أنه لم يصب فى عمل يغضب الله، لقد أصيب فى سبيل الإسلام، وفى سبيل مرضاة الله... ماذا لو كان ابنك يغضب الله..!!

قال هذا ثم اتجه إلى والده، وقال بصوت خفيض:

- أبى.. لقد هربت..

فانتبه الأب وقال بصوت تملؤه الدهشة والحيرة:

- أنت أيضًا..؟!... لماذا..!!!

* * *

قصة هروب محمد شهيد

تنفَّس محمد شهيد بعُمق، وبدأ يحكي بصوت هادئ وقال:

ـ كان القتال يدور هناك كل ليلة. وكنا نحن الأطباء مكلفين بمعالجة أولئك الذين يُقاتلون إخواننا المسلمين الضعفاء. وبذلك كنا نشكل بالنسبة لهم السَنَد والدٌعامة؛ . . . بالشكل الذى تفهمه. كان إخواننا المجاهدون، يطلقون نيرانهم على العملاء، واضعين الموت فى اعتبارهم. . . ثم نقوم نحن ـ من منطلق وظيفتنا ـ بمداواة هؤلاء العملاء. . !!! كان وجدانى يرفض هذا، وعيناى لا تعرفان النوم. . . الألم يعتصرنى. . . وذات ليلة، رأيتك ياأبى فى منامى. . . رأيتك فى حالة شتات. . . تُحدٌق فىَّ بغضب وتسألنى:

ـ متى سترجع. . ؟

عندئذ أدركت أنه أوان هروبى. كنت قبل بضعة أيام قد عقدت الصلة مع المجاهدين. وكان المجاهدون يخطفون فى كل ليلة عددا من الضباط والعساكر والرقباء والعملاء، ويصعدون بهم إلى الجبل. . . وذات يوم أرسلوا إلىّ رسالةً بموعد هجومهم المقبل، وأنهم سيهرٍبوننى معهم إلى الجبل. وتهيأت لهذا. وفى الموعد المحدد كنت مع أطباء آخرين، فى الكوخ الذى نقيم فيه، ولم يكن أحد يعلم شيئا عن اعتزامى الهرب. وفى منتصف الليل هجم المجاهدون على الكوخ، فارتعد الجميع عند رؤيتهم.

قا ل المجاهد الذى اتضح فيما بعد أنه قائدهم:

ـ جئنا لنأخذ طبيبا. . . من كان منكم طبيبا فليتقدَّم.

لم يتحرك أحدٌ من مكانه. فسحب قائد المجاهدين العسكرى المناوب الذى معنا وتقدم به إلى وسط الحجرة، وسأله:

ـ أين الأطباء منهم. . ؟ هيا تكلم وإلاّ قتلناك.

أشار العسكرى إلينا وقال وهو يرتجف من الخوف:

ـ ليس لى ذنب . . . هذا وهذا . . . كلهم أطباء ، وقد جعلونى مناوبا رغما عنّى .

قال المجاهد وهو يُدير مسدسه ناحيتى :

ـ تقدم أمامنا ، فلدينا جريح . اجمع كل ما يلزمك واعلم أنك إذا نطقت بحرف واحد ، تكون أنت الجانى على نفسك .

وبهدوء شديد جمعت كل متعلقاتى . كان الأطباء ينظرون إلىَّ نظرة يملؤها الألم . وحمل أحد المجاهدين حقيبتى ، بينما حمل آخر حقيبة السفر . وخرجنا تحت ستار الليل . . . وسلكت طريقا معهم إلى هنا ، قطعته فى بضعة أيام . وهكذا هربت يا أبى .

رفع الأب رأسه وتنهّد ثم قال :

ـ خيرا فعلت يابنى . من الآن سنُخَبِّئ اثنين ؛ أنت والأستاذ . أحسنت أنك لم تهرب من تلقاء نفسك ، وإلا لثارت حولك الشكوك ، فيأتون إلى بيتنا يفتشونه . . . ادعوا الله أن يكون فى عوننا .

فردد كل من فى الحجرة فى صوت واحد «آمين» .

بدأ الأستاذ يئن أنينا مكتوما ، وهو ملفوف فى الضمادات ، فالتفتوا إليه فرحين بنجاته . كان جرح الأستاذ عميقا ، وكذلك كان حزن أسرته وإخوانه المجاهدين ، وإحساسهم بالعجز وقلة الحيلة ، يعتصرهم .

أخذت الأم تُمشِّط لحية الأستاذ بأصابعها ، فبدأ يئن مرة أخرى بصوت واهن ، وتمتم ببضع كلمات . . . فأصغت إليه أمه ، ولم تفهم شيئا مما تمتم به . . . ثم غاب عن الوعى ثانيةً .

سمعت الأم صوت نقر من ورائها ، كأن أحدا يدخل من نافذة الغرفة ، فالتفتت وصاحت :

ـ من أنت . . ؟

كان القادم هو محمد شهيد . أشار إليها أن تصمت ، وقال وهو يجثو إلى جوارها :

ـ أنا يا أمى . لا تضطربى . لا ترفعى صوتك وإلا أوقعت بنا . فريد ووحيد يقفان

بالباب . . . أرجو الله العليم ألا يدخل علينا من لايعلم بحالنا . . . أراك مضطربة بلا سبب .

ـ وكيف لا أضطرب يا ولدى . . ؟! . . . تدرى أن الأوغاد لا يغفلون عن مراقبة بيتنا لحظة واحدة .

فأجابها :

ـ سمعتُ بهذا الأمر يا أمي . وسمعت أيضا ما قاله خالى ، وسخرياته . . . لا تخافى يا أمى ، فالله معنا . . . عندما يسترد أخى بعض وعيه ، سأصعد به إلى الجبل . لأن الصعود به الآن غير ممكن ، فهواء الجبل فاسد ويلهب جرحه ، ومستحيل أن نجد هناك بعض ما نحتاجه ، لهذا فالبقاء فى البيت بالنسبة لحالته الراهنة ، يعتبر جيدا بصفة مؤقتة . . . لقد استفدنا كثيرا من مساعداتك يا أمى ، وما كنتُ فاعلا شيئا بدونها .

أطلقت أمه تنهيدة عميقة ، ثم قالت :

ـ اسكت يابنى ، اسكت . لا تنبش جراحى أكثر . . . وأرجوك لا تدع هذا الإبليس خالك . . . لا تذكرهم أو تذكر اسمهم بعد الآن .

مرت الأيام ، وبدأ الأستاذ يسترد وعيه بالتدريج . . . إن بقاءَه على قيد الحياة لمعجزة بحق . فقرروا أن يصعدوا به الجبل ، ومن هناك ينقلوه إلى باكستان مع المجاهدين ، وهناك سيجد من يعالجه بشكل أفضل . ومن الضرورى أن ترافقه أمه الوفية الصابرة . . . فهى عون كبير لهم . تعمل ليل نهار من أجل أبنائها بدون كلل أو ملل . وعندما يأتى الليل ينام كل من فى البيت ، بينما تظل هى مستيقظة ، ترقب باب الغرفة التى يرقد فيها ابنها ، وتدعو له .

بعد بضعة أيام ، أعلن قريبهم ـ رفيق الشيطان النجس ـ للجيران ، أنه سيذهب إلى كابول ،وأصبح ذهابه مثار حديث الناس .

وفى إحدى الليالى ، خرج الدكتور شهيد وأمه ، ومعهما الأستاذ محمولا فوق نقالة ، ورافقهم عدد من المجاهدين ، وخرجوا جميعا فى طريقهم إلى الجبل . تُرى ، ماذا كان فى انتظار هذه العائلة المؤمنة المبتلاة .

* * *

وقع عبء البيت كله على كاهل أختهم «قُمرى كول». كانت تقوم بكل مهام البيت؛ تحلب الأبقار، تسوى الخبز فى الفرن، تُعد الزبادى والجبن، تعتنى بالدجاج والديوك الرومى، وفى الوقت نفسه، تقرأ القرآن لساعات طوال، وتبتهل إلى الله بدموعها، أن يكون فى عون إخوتها، ويكتب النصر للمجاهدين. كانت تتفانى بكل كيانها فى خدمة والدها وإخوتها الثمانية... ألا تتعب..!!... مستحيل، فالتعب لا يخطر لها على بال. كل إخوتها يحبونها حبا جمّا، ويُحلِّقون حولها مثل الفراشات، ولا يقطعون رأيا فى أمر بغير مشورتها، ويتفانون فى إسعادها. لم تلتحق «قُمرى كول» بالمدرسة أبدا. لكنها بعلمها وثقافتها، تفوق طالبة فى الثانوى، بل وفى الجامعة. فهى فتاة وقور، مؤمنة، حساسة، وذكية. يُغضبها خروج البنات خارج البيت بدعوى تلقى العلم. وتتساءل:

ما جدوى الطواف بالبيوت..؟! هل العلم لا يكون إلاّ خارج البيت..؟! هل تلقت السيدة فاطمة، والسيدة عائشة (أمهات المؤمنين رضى الله عنهما) العلم فى المدرسة..؟.. كلا... لقد تلقينه فى البيت، ودرسن على أفضل ما يكون. ماذا لو أن كل الآباء والإخوة المتعلمين، علموا أخواتهم وبناتهم فى البيت..؟

كنا نحن اللاتى تعلمن فى المدرسة، يعترينا الشعور بالخجل عندما نجلس مع «قمرى كول» ومثيلاتها من البنات. كان النور يفيض من وجهها كأنه فيض علم. تخرج الكلمات من بين شفتيها مثل حبات اللؤلؤ، حبة تلو أخرى. فتعمل عمَلها فى القلب بسرعة.

اجتمعنا فى بيت «قمرى كول» ابنة الأم المؤمنة التى هاجرت إلى باكستان، والتففنا حولها... كانت تتكلم وتنطق الكلمات بحزن وبطء... كلمة... كلمة. كانت تحكى حكايتها أحسن من أمهر الكتّاب... جعلتنا نشعر وكأننا عشنا تلك الأحداث. لم تغفل ذكر أدق التفاصيل، حتى تُشبع لهفتنا لمعرفتها... كانت تحكى ونحن مشدوهات، لصبرها وثباتها. لم تذرف دمعة واحدة وهى تقُصُّ حكايتها... لم تتفجع، إنما كانت تردد من حين لآخر:

- ياربى، ألهمنى الصبر وارض عنا.

* * *

حكاية قمرى كول

صعد أخى الأستاذ وأمى إلى الجبل. وبينما نحن فى الدار، انهمر علينا المنافقون من أقاربنا وجيراننا، . . . كانوا كثيرا مثل المطر. زادوا من حدة توترى عندما قالوا :

ـ إننا نعرف إلى أين ذهبت أمك . . . تكلمى، لا تخافى . . . فنحن عون لك فكنت أتشاجر معهم، ليس هذا فقط، بل أطردهم من البيت أحيانا . . كنت وأبى وبقية إخوتى عاجزين عن التصرف معهم نزلت أمى من الجبل، وسافر أخواى محمد شهيد ومحمد سيد إلى باكستان، وقد أسعدنا سفرهما . وطمأننا .

وفى يوم من الأيام، اقتحم فجأة أشخاص مسلحون بيتنا فى وقت الظهيرة . فوقفت ـ وأنا أغطى وجهى أنتظر أن ينتهوا من تفتيش البيت . وقد فتشوه بدقة . . . ورفعوا بندقيتَىْ الصيد اللتين نمتلكهما، من فوق الحائط وأخذوهما . . . ثم ألتفت الضابط إلى والدى وسأله بصوت عال :

ـ تكلم . . . أين ولداك؟

أجاب والدى وهو رابط الجأش :

ـ ها هم أبنائى جميعا يقفون فى فناء الدار .

لكَزَه الضابط فى صدره بمؤخرة البندقية التى فى يده، وضربه ضربة قوية طرحته أرضا . فأرادت أمى التصدى له، لكنى أمسكت يدها لأمنعها، وقلت لها :

ـ لا يأمى . إنهم أنذال ولن يتورعوا أن يمدوا يدهم عليك . . . فتذرعى بالدعاء .

وقفت أمى باكية، وكان الزبد يتطاير من فم الضابط وهو يصرخ قائلا :

ـ أيها الرجل القذر، إنى أسأ ل عن ابنك الجريح، وابنك الطبيب الذى هرب من مكان عمله بعد تدبير . . . أين هما . . ؟ ألا تتكلم . . !! اعلم أنهما حتى لو أصبحا طائرين وطارا فى السماء، فلن يهربا من قبضتى . . . ثم لماذا تحتفظان فى البيت ببندقيتَىْ الصيد هاتين . . ؟!

حمل والدى أخوىَّ محمد مزيد، ووحيدا وأجلسهما فوق الفرن. همَّ أخى وحيد أن يتكلم، فاندفع إليه والدى وأسكته، ذلك لأن وحيد كان يمكن أن يتكلم تحت تأثير القوة. ومعنى هذا أن يعرف العملاء كل شىء. . . كان موقفنا صعبا.

قال والدى:

- نحن لا نعرف شيئا عنهما ولا نعرف أيضا ما الذى فعلاه.

ارتفع صياح الضابط وصرخ قائلا:

- إنك كذاب. . . اسمعنى. . . كنا نود قتل ابنك. لولا أنه أفلت منا. ثم علمْنا أنه على قيد الحياة، وإنك تخبئه فى هذا البيت. وكذلك ابنك الآخر. اكشف لنا عن مكانهما وإلا ساءت عاقبتك. فالخائنون لنا لا نجاة لهم. لن يترك خالقنا تراقى(حاشا لله) هؤلاء الخونة بغير عقاب لقد منَحَنا حياة جديدة. إنه خالد. ونحن نقتل كل من يتعرض لاسمه بسوء. انتبه. . . فإن الأبوَّة ستقودك إلى الخطأ.

ثم التفت الضابط إلى إخوتى الثلاثة، فريد ومزيد ووحيد، وكانوا يرتجفون فزعا، ويحاولون ضبط أنفسهم، وقال لهم:

- وأنتم، وأنتم أيها اللاجئون الصغار، لقد تغيبتم كثيرا عن المدرسة هذه الأيام. . . تكلموا، أين أخواكم. . لقد مددتم لهما يد العون، أليس كذلك. . ؟

فانبرى أخى وحيد قائلا للضابط ومن معه:

- صدقوا، إننا لا نعرف عنهم شيئا. لقد بحثنا وسألنا كثيرا عن أخى الأكبر الأستاذ سيد. دون جدوى وقد عرفنا منك توا أنه جريح. مبلغ علمنا أن أخى الطبيب يداوم على عمله. ولا نصدق أنه هارب.

رد الضابط على ذلك بقوله:

- أيها الثعابين الصغار. إنكم لا تقلّون خطراً عن أخويكم الكبيرين. إننا نعلم أنهما موجودان الآن هنا فى البيت. لابد أن نقبض عليهما. . فليختبئا ما شاء لهما الاختباء. .

ثم صاح فى جنده قائلا :

ـ هيا ، فتشوا البيت مرة أخرى ، وبعد ذلك انصرفوا ، وسوف نلتقى بهؤلاء الخونة فيما بعد .

عاد هؤلاء الجنود بعد ذلك مرات ومرات ليفتشوا البيت . وتكررت إهاناتهم لنا . ولكن كل جهودهم ذهبت هباءً . وبذلت أسرة خالى كل ما فى وسعها لإيذائنا ، ورغم هذا لم نضعف وصبرنا فى مواجهتهم بكل ما أوتينا من عزم .

* * *

مضى وقت طويل على ذهاب أخوى إلى «بيشاور» . ومات تراقى [١] أثناء ذلك ، وكان دُمية . جعل الله مأواه جهنم وبئس المصير . وجاء مكانه أمين [٢] ، ووضعوا بيتنا تحت المراقبة . وعاث أنصار أمين فى الأرض فسادا ، فى حين قُطع دابر أنصار تراقى ، ولم يبق لهم أثر .

وفى ذلك الوقت ، دبّ الشقاق بين أخوالى وناصبوا بعضهم العداء . فمنهم من يناصر تراقى ، ومنهم من يؤيد أمين وكان عداؤهم فيما بينهم راحة لنا .

رجع أخى الطبيب من بيشاور ، بعد أن أدخل أخى الأستاذ مستشفى للمهاجرين هناك ، وطمأننا على تحسن صحة الأستاذ وقد أسعدنا سماع ذلك .

بالغ أمين فى اضطهاد المسلمين ، حتى تجرّعوا الدم . فقد اقترف كل أنواع الظلم . وكان أخى محمد شهيد مع المجاهدين ليل نهار ، يضمد جراحهم ، ويُسهم فى الهجوم على الكفار .

اغتيل أمين وبذلك قُضى على دمية أخرى من دُمى الكرملين ، وأتوا بالخائن بابراك من موسكو ليتولى مكان أمين .

كان أنصار حزب الشعب يبحثون عن ثغرة يهربون منها . بينما كان البرشميون ،

(١) نور الدين تراقى الذى أطاح بحكم محمد داود فى إبريل ١٩٧٨ . وهو مؤسس حزب الشعب الديمقراطى عام ١٩٨٢ ، وكان مدعوما من الروس . وله كتابات فى الماركسية اللينينية صدرت فى الهند بلغة الباشتو . ظل يحطم حتى أطاح به كارميل سنة ١٩٨٩ .

(٢) حفيظ الله أمين نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى فترة حكم تراقى ، وهو المسئول عن تنظيم حزب الشعب داخل الجيش .

قرود الشيوعية، أمثال بابراك، يرقصون فرحا. كان الضرب ينهال على أنصار حزب الشعب، فينبحون كالكلاب ـ وكان بابراك يوجّه حديثه إلى الشعب الأفغانى عبر راديو موسكو قائلا:

ـ يا بَنى وطني. يا من غادرتم بيوتكم وتحاربون فى الجبال ظلم أمين... تحاربون وأنتم حُفاة، جياع، عُراة لرفع الظلم. آن الأوان لتنزلوا الآن من الجبال.. فاليوم يومنا.. لنتكاتف أيدينا ولنعمل سويا.

نعم، تولى بابراك مقاليد الحكم ببساطة لتحقيق هدف واحد، ألا وهو استدراج المجاهدين الذين اعتصموا بالجبال، يقاومون منها الحكم، الذى عجز عن إنزالهم بقوة السلاح. تُرى كيف يعتقد هؤلاء الكفار أن المسلمين حمقى ورجعيين ومشعوذين، وذوى عقل عنكبوتى، ومن السهل خداعهم..!!!

* * *

خابت توقعات بابراك والروس وحدث عكس ما توقعوا تماما. فلقد انضم الناس إلى صفوف المجاهدين بحب وحماس كبيرين. خرج المهاجرون من أفغانستان أفواجا. وقاد المجاهدون العمل. فمخازى البرشميين، ومجيئهم إلى السلطة بهذه البساطة وبهذا الخداع، حث كل المسلمين على الجهاد. ترك الإسلاميون حياتهم الوثيرة، وأخذوا يفتشون عن أنصار حزب الشعب الذين خارت قواهم بعد مقتل أمين، فيقتلونهم ويهجمون على مراكز العسكر، ويغنمون منها الغنائم الوفيرة.

كانت الولايات تسقط فى أيدى المجاهدين، ولاية تلو الأخرى. وفَقَد حزب برشم أنصاره. وكانت البنات والنساء السافرات، يفهمن كل ما يجرى فى البلاد من خلال البيانات التى توزع عليهن، فيرجعن إلى الحجاب من تلقاء أنفسهن، وبدون أدنى مشقة، ويأخذن دورهن إلى جانب الأخوات المسلمات. واندفعت البنات إلى الشوارع بالآلاف وعشرات الآلاف يطالبن بإقصاء بابراك وطرد الروس شرّ طردة، ويهجمن على أقسام الشرطة رافعات شعارات مكتوب عليها:

ـ أعيدوا إلينا حجابنا ـ لسنا نصرانيات ـ نريد السموَّ من جديد ـ بابراك يهودى ولن نسير عاريات مثل نساء اليهود.

* * *

عشرات المئات من المجاهدين يربطون القنابل حول خصورهم، ويلقون بأنفسهم تحت عجلات الدبابات. في حين كان مقلدو الغرب والشيوعيون يتفاخرون بقولهم:

- كابول هي باريس الصغيرة، أو موسكو.

لم يعد في كابول مكان لحجاب أو لحية. وكان مقلدو الغرب في حرب دائمة ضد التقاليد والمجتمع، سعيا وراء التغريب، وأصبح المنافقون يتبرمون بقولهم:

- هل مسّت عصا الثورة، كابول أيضا..؟!!

* * *

كان بابراك عاجزا... جمع المجاهدون كل أسلحة حزب الشعب وكان أخي محمد شهيد يشن في كل ليلة، هجمات مع المجاهدين لجمع السلاح، فيقتلون المشركين والمرتدّين الذين يتطاولون على الإسلام. وقد هرب أبناء خئولتي وأبناء عمتي منذ أول ليلة وصل فيها البرشميون إلى السلطة... بالطبع لم يتمكنوا من الفرار بأسلحتهم، لأن المجاهدين سيطروا على كل الطرق المؤدية إلى كابول. وكانوا يفتشونها بكل دقة. واحترق أخي ألما عندما علم بأمر هروبهم. كما هرب أكثر أنصار حزب الشعب إلى كابول ولاذوا بالبرشميين. وكان القتل مصير كل من فقد سلاحه... فكل سلاح بالنسبة للمجاهدين له قيمة القنبلة الذرية. ومعنى عدم وجود السلاح معهم كان يعني أن يطردوا من بلادهم. لكنهم الآن يملكون السلاح.

كان كل شيء يتسرب من أيدي أنصار حزب الشعب. وهم في فزع عاجزون. وكان بعضهم قبل الهروب، يدفنون أسلحتهم في مكان ما. وبعد فترة يعود واحد منهم خفية ليحضر لهم هذه الأسلحة. إلا أن المجاهدين سرعان ما اكتشفوا هذه الحيلة. ولقد فعل أبناء خالي وأبناء عمتي نفس الشيء.

ذات ليلة جمع محمد شهيد إخوانه المجاهدين ودخلوا منزل عمتي. وطالبوهم بتسليم ما لديهم من سلاح. فأنكرت عمتي وزوجها وجود السلاح. وكان أخي

أثناء ذلك ملثما . وعندما أنكر زوج عمتي وجود السلاح ، دفعه أحد المجاهدين بكعب البندقية فطرحه أرضا ، وانهال عليه ضربا . ورغم ذلك لم يُقرّ بشيء وقال :

ـ لقد عرفتك ، أنت شهيد بن مريد . . ! وأنا لن أدَع هذا الأمر يمر دون أن تنال عقابك . .

فقال شهيد محتدّا :

ـ اسمعني ، لأكُن من أكون فهذا أمر لا يعنيك ، وأيضا لا يخيفني . . هات السلاح وإلا أخذته منك بالقوة .

على ذلك اضطروا إلى تسليم السلاح له وهم صاغرون . كما سلّم أخوالي السلاح بنفس الطريقة . وقد أفقدهم هذا التصرف صوابهم .

* * *

رجع أخي الأستاذ من بيشاور . فلقد رفض البقاء هناك رغم إصرار كل الأطباء . كان يقول :

ـ محال أن أظل بعيدا ولا أشترك في الجهاد .

كانت حالته غير مطمئنة عند مجيئه إلى البيت . كان يغشى عليه من حين لآخر ، ويظل يهذي في إغمائه بالساعات ويردد :

النصر للمجاهدين . سيتم الله نوره . الله أكبر .

ولقد أحزننا مجيئه وهو مريض ، لأن حالته كانت تسوء يوما بعد يوم ، وتشتد وطأة ما به .

* * *

خطيبة الأستاذ سنيد فتاة من قرية بعيدة عن قَصَبتنا . وكانت حماته تزورنا من حين لآخر ، فتظل تبكي ساعات طوال ، وتدعو له . كان الجميع يحبون أخي ، ويدعون له بالشفاء . . . لم تفارقه أمي لحظة واحدة ، بل ولم يجف لها دمع . وقد أسندت مهمة قيادة جبهتنا إلى محمد شهيد لحين شفاء أخي الكبير .

محمد شهيد، اسمٌ لن ينقطع ذكره أبدا. البرشميون والشيوعيون ينطقونه بخوف، بينما يردده المجاهدون بكل فخر. فلقد كان كل شيء أيام قيادته للجبهة، يسير على ما يرام. فالأم التى تشكو إليه من ابنها، تنزل من الجبهة وهى سعيدة بعد أن يعود الوئام بينها وبين ابنها. وفى عهده انقطع دابر الظلم، وانتهى العمل بالربا، وأعلن المرابون توبتهم النصوح، وأخلصوا فيها. وأعادوا الأرض إلى أصحابها الأصليين، تلك الأرض التى اغتصبها منهم تراقى عنوة، ووزعها على آخرين. . . وعادت البنات والنساء إلى الحجاب، كما عيَّن فى كل مكان رجالا للحث على أداء الصلاة. . . فأصبحت الصلاة تقام فى كل بيت، ويُسأل تارك صلاة الجمعة، وصار الرجال يذهبون إلى المدارس لتلقى العلم. ويعلم بعضهم بعضا قراءة القرآن الكريم. وينضمون للمجاهدين بمحض اختيارهم، ويدربون الفتيات على الجهاد، ويقدمون المساعدات إلى العائلات المهاجرة. كان الجميع سعداء بأخى وممتنين له فقد تولى بنفسه أعمال الزكاة والعشور.

* * *

ذات يوم نزف أخى الأستاذ فجأة، فأرسله محمدشهيد مع بعض المجاهدين إلى باكستان على وجه السرعة. أثناء ذلك، لم تكُف أمى عن البكاء. . . ودَّعنا أخى الأستاذ حتى الباب. كان محمد توحيد - أصغر إخوتى - يُلازم الأستاذ بصفة دائمة، لذا انتحب بشدة لحظة وداعه. لم يُقصِّر الأستاذ أبدا فى حبه لنا. لكن حبه لمحمد توحيد، فاق حبه لنا جميعا، فلطالما ضاحكَه وداعبه.

رجع محمد شهيد فى المساء ومعه عدد من المجاهدين. كانوا مضطربين. بدا محمد شهيد متغير اللون. وأخذ فى فرش البُسُط والفَرْش فى الساحة خارج البيت. كان الوضع يوحى بأن شخصا ما سيأتى. فكل واحد من الموجودين يتحرك فى صمت. ثم رأيت المجاهدين يتقدمون نحو فناء بيتنا حاملين أخى الأستاذ ميتا ومضرجا فى دمائه. فأغمى على أمى. . . نعم، لقد استشهد أخى وهو فى الطريق إلى باكستان، على أثر نزيف فى المخ.

* * *

ازدحمت ساحة بيتنا بالناس. وجلس المجاهدون خارج البيت. بينما تدفقت النساء إلى البيت جماعة تلو أخرى. وأفاقت أمى من إغمائها، وألقت بنفسها فوق جثمان أخى، وأجهشت بالبكاء، كنت بدورى أبكى وأنتحب. لكن سلواى تجسدت فى أن الشهداء أحياء.. لا يموتون. جاء المجاهدون فى الصباح ليشيعوا جثمان أخى إلى مثواه الأخير. قبلته أمى فى جبينه قبلة الوداع، كذلك فعل أبى. ثم فارقنا أخى إلى يوم القيامة.. أطال والدى الشكر لله، وبيديه أودع أخى الثرى.. إن جرح الحزن عليه ما زال حيا بيننا لم يندمل بعد. فأمى لا تملك سوى الانزواء فى ركن من البيت، تبكى الساعات الطوال بينما أبى يسرِّى عنها.

* * *

طلبت جبهة «على شانج» من جبهتنا، مجموعة من المجاهدين. وعلى الفور، أعد أخى المجموعة ووجههم إلى هناك، و من بينهم أخى الذى يصغرنى واسمه «محمد فريد». وانقضى شهر على ذهابه إلى الجبهة. وذات يوم كنت أصلى صلاة العصر، وأدعو له؛ وإذ بصبى يندفع إلى فناء البيت وهو يصرخ ويقول بأنفاس متقطعة:

- أختى.. أختى، لقد استشهد أخى الأكبر محمد فريد... تعالى وانظرى... المجاهدون قادمون حاملين جثمانه.

وتجمدت فى مكانى... وسمعَت أمى ما قاله الصبى، فتسمَّرَت فى مكانها، وعيناها مصوبتان ناحيتى... وبعد بضع دقائق ترك المجاهدون جثمان أخى وانصرفوا لنُلقى عليه النظرة الأخيرة. وكشفنا عن وجه أخى... رأيناه وكأنه قد نام لتوِّه. كانت يداه دافئتين، وتعلو وجهه ابتسامة حبور. احتضنت أمى يديه والدمع ينهمر من عينيها، وقالت تودعه لفراقه عينيها:

- اذهب يا ولدى صاحبتك السلامة. دعوت الله أن ييسر لك السبيل، وها أنت ذا تنقلب إلى أهلك مسرورا. اذهب يا صغيرى، فأنا ما زلت أدعو لك. بلِّغ سلامى إلى سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واسأل الله أن يرضى عن والديك، وأقرئ أخاك الكبير السلام. وأبلغه أننى اشتقت إليه كثيرا، وأنتظر يوم

لقائنا . تُرى هل سيُكتب لنا أن نظفر بما ظفرتم به!! اذهب يا ولدى، عليك سلام الله ورحمته، إن شاء الله يكون لنا نصيب من هذا الطريق، إننى راضية، والحمد لله، الحمد لله، الحمد لله .

* * *

بعد عدة شهور من استشهاد أخى محمد فريد، ذهبت أمى مع نساء من جيراننا، لخطبة فتاة من القرية، لأخى محمد شهيد، فرحب أهل الفتاة بأمى قائلين :

ـ إن طلبك هذا شرف لنا، من ذا الذى لا يرحب بزواج ابنته من فتى مثل محمد شهيد . . !

وأعربوا عن موافقتهم بأسلوب فى منتهى النبل والكرم . وبعد شهر، تم عقد القران وأتينا بعروسنا . وكانت هذه السعادة بلسما لجراحنا، وامتلأ بيتنا بالسعادة .

* * *

أثناء ذلك، كان البرشميون لا يكفون عن مطاردة أخى للإيقاع به، والنيل منه حيا أو ميتا . وكان أخى محمد شهيد يقتلع كل من يعترض طريق جهاده، ويقصف كل مفرزة يهاجمها . فقضَّ مضاجع البرشميين، حتى بلغت صيحاتهم عنان السماء . وأعلنوا رصدهم مبلغ ثلاثة ملايين أفغانى لمن يغتال محمدشهيد . وكنا دائما نوصى أخى بأن يأخذ حذره .

ذات يوم رجع أخى إلى البيت وقال :

ـ أمى، لابد من الهجرة . لقد جاوز البرشميون المدى، بل إنهم يدفعون نقودا لبعض المنافقين ثمن اغتيالى . . . هاجروا أنتم ولا تفكروا فى أمرى . وقبل هذا، سأذهب إلى باكستان، وأعود قبل تأهبكم للهجرة .

كنت وزوجة أخى متفاهمتين تماما، ومتعاونتين فى كل ما نعمله . نأكل معًا، ونشرب معًا، ونتبادل ملابسنا معًا، وقد أحبَّتها أمى كثيرا . كانت فتاة عاقلة حقًا . وكنا فى غاية التفاهم، رغم أنها تعلمت فى المدرسة . وكانت تساعدنى فى كل أعمالى . ولا تعرف أبدا معنى التعب، بل وتصرُّ على أن تتحمَّل أعباء البيت بدلا منى، وتظل تعمل بكل حب ورغبة .

رجع أخى من باكستان بعد شهر من ذهابه، ورزقه الله تعالى بمولودة. وُلدت ونحن نتأهب للهجرة إلى باكستان. وكانت سعادة أبى بغير حدود، أما أمى فتقضى يومها كله بجوار المولودة. فقد كانت مثل كرة بيضاء... ما شاء الله. وبدا أخى فى بادئ الأمر وكأنه حزين لكونها أنثى، لكنه بعد فترة عاد إلى طبيعته. وكنا جميعا نتبادل حمل الطفلة الصغيرة التى لم يتجاوز عمرها بضعة أيام. كلنا متعلقون بها. كما استرد أخى الصغير توحيد حيويته، بعد أن كان يَزوى حزنا بعد استشهاد أخى الأستاذ سيد. بدأنا فى اختيار اسم للمولودة، ترى، ماذا َنسميها؟

صاح أخى محمد وحيد:

- نُسَمِّيها كاملة، لقد سميتها كاملة، وليكن اسمًا مباركا.

أيَّدْناه جميعا، ماعدا أبى. فقد رغب أن يسميها سيدة أو فريدة، على اسمىّ أخوىّ الشهيدين. تمسكنا باسم كاملة، حتى لا يتجدد جرح أمى كل لحظة.

***

مضى أربعون يوما على ميلاد كاملة، وكان الوقت ظهرا، عندما أقبل أخى محمد وارد، الذى لم أذكر اسمه من قبل. وهو هادئ الطبع، صامت، ضعيف البنية، يساعد أبى دائما فى أعمال الحقل. واندفع إلى فناء البيت وهو يلهث، ويداه متربتان. تدل هيأته أنه كان يعمل فى الحقل. وصاح وكأنه ينتحب:

- أخى، اهرب... اهرب... الروس قادمون... قادمون ناحية منزلنا مباشرة... أنا، أنا... لا يمكننى الرجوع... إنهم فى الطريق..!...

كان شهيد، ووحيد ينظفان سلاحهما أسفل السقيفة. فصاحت أمى فى خوف وهلع:

- يا إلهى... كيف لم نسمع ص، ت دباباتهم..! كيف جاء هؤلاء الكفار..!!

قال أخى وهو يلهث:

- إن مُشاتهم يهبطون من الطائرات... كنت أعمل فى الحقل مع أبى، وسمعتهم يسألون عن منزلنا. ومعهم برشميون... إنهم قادمون من الخلف. لقد جاءوا فى فصائل متباعدة. آلاف الجند ينزلون من الطائرات. كلهم شاهرون أسلحتهم.

وقعنا فى شرك الغفلة . فمن وشى بنا، قد أحْكَم الوشاية . ومن قبيل الحيطة ، كنا قد حفرنا من قبل مخبأ فى الجدار تحسُّبًا لمثل هذه الأحوال . وأقمنا جدارا مسحوراً لحجرتنا ، فهى الحجرة القريبة من حائط القلعة . وثبَّتْنا على هذا الجدار رفا صغيراً ، ليبدو لمن يراه من الخارج رفًا ، وهو فى حقيقة أمره نافذة . أى أن الحجرة أصبحت أضيق بعض الشىء ، ولا يستطيع أحد أن يدرك وجود جدار ثان . فإذا دفع أحد الرف بقوة ، دخل الرف فى الحائط وظهرت من خلفه حجرة ضَّيقة وطويلة . وحفرنا الأرض بحيث يجرى ماء الوادى الضيق الواقع خارج القلعة ، فيدخل الغرفة من ناحية ويخرج من الناحية الأخرى . فيُرَطِّب هواءها فى الصيف . ولايمكن لأحد أن يلحظ مرور مجرى الوادى ببيتنا ، لأن المكان حول قلعتنا محاط بالأشجار . وقد أقمنا هذه الغرفة المخبأ لنمنع البرشميين من اغتصاب ما لدينا من أسلحة . وأيضا من اختطاف إخوتنا الصغار بالقوة .

* * *

كان الروس يتقدمون نحو قلعتنا مباشرة فى مجموعات متباعدة متتالية ، قاصدين بيتنا ، دون أن يتوقفوا عند أى بيت آخر .

التفت محمد شهيد ناحيتى أنا وزوجته ، وصاح :

ـ هيا اسرعا . . . اجريا . . . اهربا من هنا ، يجب ألاّ يقبضوا عليكما أحياء . خذا الطفلة معكما ، هيا . . . استودعكم الله .

كنت أرتعش وأتحسس قدمىَّ ، بينما احتضنت زوجة أخى طفلتها ، وهو تبكى .

جمع أخى شهيد سلاحه ، ودخل البيت مع أخوىّ وحيد ، ومحمدوارد . صحت فى زوجة أخى :

ـ هيا ، اجرى ، اجرى واذهبى بابنتك إلى بيت جارنا فلان ، وسألحق بكما توا .

فقالت وهى تبكى :

ـ لا ، لن أذهب ، سأبقى هنا . أرجوك يا «كول» . ولك أن تصدقى أننى أكاد أموت من القلق والانتظار والرغبة فى معرفة ما سيحدث . . ؟

صحت فيها بغضب :

ـ بل اذهبى ، أستحلفك بالله يا عزيزة ، اذهبى وإلا أخذك الروس . تعرفين أنهم يتعمدون أخذ النساء . وما العمل إن فعلوها . . ؟ هيا اذهبى ، أرجوك اذهبى .

خرجت عزيزة من القلعة ودموعها تغالبها . صعدت أمى إلى سطح البيت وأتت إلينا بالخبر اليقين :

ـ إنهم قادمون بأعداد غفيرة ، هيا ادخلوا الغرفة المخبأ .

دخل إخوتى الثلاثة الغرفة . وأعطيتُ لهم ثلاث مراوح . لم يكن الجو حاراً ، لكن ضيق الغرفة قد يصيبهم بضرر ، بسبب قلة الهواء . أراد أخى محمد وارد أن يأخذ إبريقا ، فقلت له :

ـ ماذا أنت فاعل به . . ؟ أتَحمله فارغا . . ؟ ثم إن الماء يصل إليكم من الجدول ، وستخرجون من الغرفة فى المساء بعد أن ينصرف هؤلاء الأوغاد . كما أنى وضعت لكم فى الموقع ثلاث بطيخات .

همَّ أخى بدخول المخبأ وهو يضحك قائلا :

ـ حسنٌ يا أختى الحبيبة ، هيا بنا ، استودعكم الله .

فأجبته بدورى :

ـ وأنتم أيضا استودعكم الله .

غادرتُ بيتنا وأنا أبكى . ارتديتُ الملاءة الأفغانية ، وأخذتُ أجرى . رأيتُ الروس وهم فى الطريق إلى قلعتنا . فمشيت متخفية بجانب سور القلعة . وأنا أرتعش ، إلى أن وصلت إلى قلعة بجوار قلعتنا . أثناء هذا حاصر الروس قلعتنا وتربصوا بها ، ونصبوا الشراك فى كل ركن وزاوية .

* * *

لقد تفرقت أسرتنا ، فأخى محمد مزيد يجاهد فى جبهة أخرى ، بينما تفرَّق إخوتى الأربعة الصغار ، فى قلاع مجاورة . دفعت أمى الرف بعد أن دخل إخوتى

الكبار إلى مخبئهم. وغادَرَت الغرفة وكأن لاشيء هناك. ثم دخلَت حظيرة المواشى وأخْرَجَت منها بقرة وربطتها أسفل السقيفة، وبدأت تحلبها.

* * *

اقترب الروس من قلعتنا وأمروا مجموعة من الجند باقتحامها. استوقف الروس وهم فى طريقهم إلى قلعتنا، فلاحا فقيرا - أبًا لطفل صغير فى السابعة - وكان الفلاح يمر من وراء المزرعة التى يقف أمامها الروس، قاصدا بيته، فسألوه سؤالا عابرا عن قلعتنا وعن بيتنا. ولأن الفلاح يعرف والدى معرفة وثيقة، كما أنه فلاح مؤمن ومجاهد. فقدهزَّ كتفيه فى شجاعة وأجابهمَ:

- لا أعرف بيت من هذا، وكيف أعرف وأنا أسكن بعيدا عن هذا المكان.

صاح البرشمى الذى يضع قناعا على وجهه:

- دَعْكَ من هذا وافصح؛ قلعة من هذه..؟

ثم قال روسى منهم يعرف قليلا من الفارسية:

- دعه لى...

ثم استدار ناحية الفلاح وقال له:

- اسمعنى، وأجب. أفى هذا البيت أعداء..؟

صاح الفلاح المسكين قائلا:

- لا، لايوجد.

فقال الروسى:

- حسن، إذا كان الأمر كذلك، فسنأخذك معنا الآن إلى أن نتأكد. فإذا اتضح صدق كلامك، أخلينا سبيلك، وإن كان غير ذلك، قطعناك إربًا... هيا تقدم أمامنا.

وساقوا الرجلَ المسكين أمامهم، ويداه مربوطتان خلف ظهره. وفى الطريق توقفوا، وأعادوا سؤاله:

- ألا تتكلم..!! هل فى هذه القلعة أعداء أم لا..؟

اعتصم الفلاح بربِّه، وكرر ما قاله من قبل:

- لا، لا يوجد، لايوجد أعداء أبدًا فى هذه القلعة.

* * *

والدة محمد شهيد تكمل الحكاية

اختبأ أبنائى فى الغرفة الواقعة خارج البيت، ثم ربَطتُ البقرة خارج السقيفة، وجريتُ إلى الباب مرة ثانية. وفجأة وَجَدتُ نفسى أمام مجموعة من الروس. فاستداروا ناحيتى بأشكالهم التى تُشْبه أشكال الخنازير، وغمغموا بكلام لم أفهمه. ثم وخزنى أحدهم بالسلاح الذى فى يده، وأشار لى أن أبتعد عن الباب. كنتُ أحَدِّثُ نفسى وأفكر فى أمر هؤلاء الروس، وتفتيشهم البيت، ثم خروجهم منه. أفسحتُ الطريق فدخلوا فناء البيت وانتظر خمسة منهم عند الباب، ودلف ثلاثة آخرون إلى الفناء. دخلوا البيت مباشرة دون أن يلتفتوا يمينا أو شمالا، وكأنهم وُلدوا وتربوا فيه. هرعت وراءهم، فلم يكترث بى أحد منهم. غريب ما يحدث. . . إنهم يمرون بالغرف غرفة تلو غرفة، ولا يقومون بأى تفتيش، ثم دخلوا الغرفة التى يختبئ فيها أبنائى. . . ودخلت وراءهم، ورأسى يدور من القلق.

توقفوا داخل الغرفة، وتبادلوا النظرات، ويدأ أحدهم يطرق بقبضة يده على جدران الغرفة. وجاء الدور على مخبئنا. طَرَقَ الروسى عليه مرتين، ثم قال لرفاقه كلاما بلغتهم. وعلى هذا، أخرج اثنان منهم ألغاما من الجراب المربوط حول خصريهما، وشرعا فى زرعها فى أحد أركان الغرفة. . . غامت عيناى، ثم استجمعت نفسى، وارتميت بكل قوتى فوق أحد الروس، وبدأنا نتصارع. فأخذتُ أضربه وألكمه بقبضتيّ، بكل قوتى. فانهال علىّ زميلاه ضربا بمؤخرة بنادقهم ليخلصا زميلهما من بين يدىّ. فتكومتُ فى ركن الغرفة. . . ووقف واحد منهم عند الباب، بينما وقف الثانى ينتظر بجوارى. بينما الروسى الثالث مستمر فى زرع الألغام. واستجمعت نفسى مرة أخرى. . . ستُمزِّقُ الألغام أبنائى وهم بالداخل لا يعلمون من الأمر شيئا. استجمعت كل مالدى من قوة، ووقفت على قدمىّ، وهجمت على الروسى، فسقط آخر لغم من يده، ثم رفعتُ الروسى مثل الجوال، وأطحت به فى الهواء. وصدِّقوا، إنه رغم بنيته الضخمة، كان من السهل على رفعه بهذا الشكل، وكأنه بالون منتفخ بالهواء. وطوَّحتُه فى الهواء عدة مرات، ثم طرحتُه أرضًا، فأغمى عليه بدون أن يتلفظ بآه واحدة.

كان الروسيان الآخران، ينظران إليّ وقد استولى عليهما الذهول، وكأن هناك من يساعدنى فى الإطاحة بذلك الروسى على الأرض. فهجمت عليهما وأنا أعض على نواجزى من الغضب. أدرك الروسى الواقف عند الباب ما حدث، ووجد السبيل لتخليصهما من قبضتى، بأن ضغط على زناد الكلاشينكوف الذى فى يده، فانهمر الرصاص بغير توقف. واصطدم بيدى شىء بارد، فصرختُ من الألم. وفى تلك اللحظة دفع أبنائى رفّ مخبئهم. كان الروسيان يحدقان نحوى وأنا مضرجة فى الدماء. وعندما دُفع الرف للمرة الثانية، تعلقت نظراتهما المفزوعة بالحائط، وكان السهم قد نفذ. فقبل أن يتهيأ الروسيان ببنادقهما، كان ابنى محمد شهيد، قد أسقط الرف على الأرض، واستدار ناحيتهما قائلا:

- قفا، أيها الكافران الوضيعان، ارفعا أيديكما عن المرأة... حذار أن تمساها بسوء..! لتكن تصفية حساباتكم معنا نحن.

قال هذا وأطلق النار على الروسيين فصرعهما. ثم عبر من النافذة الصغيرة إلى داخل الغرفة، ومن ورائه ابناى الآخران... كان اثنان من أبنائى يحملان سلاحا، والثالث يمسك فى يده قنابل يدوية. وانطلق ثلاثتهم إلى الخارج. كنتُ أصيح وراءهم لأحذرهم:

احذروا... الباب... الروسى بالباب.

رأى ابنى ذلك الروسى الذى أوقعتُه على الأرض، فأطلق عليه وابلا من الرصاص. وزحفتُ حتى خرجتُ من الغرفة ووصلتُ إلى الباب،

أما الروس الخمسة الذين كانوا عند الباب، فقد هرولوا ناحية البيت فور سماعهم صوت الطلقات، وقد أشهروا أسلحتهم. ووقع بصرهم على أبنائى أثناء خروجهم من البيت. لكن محمد شهيد كان مستعدا ويده على الزناد تحسبا للخطر، ويعاونه محمد وحيد، فأطلق الرصاص على الروس الخمسة فصرعهم. ثم صاح شهيد فى أخويه:

- إلى السطح... لنصعد إلى السطح، ثم نقفز خارج القلعة، هيا..!...

كنت أرقبهم وأنا مضرجة فى الدماء . وعاجزة عن اللحاق بهم، لم أستطع أن أنبههم ، أن القلعة محاصرة من الخارج . وبمجرد أن هممت بفتح فمى لأنبههم ، كانوا قد صعدوا إلى السطح . كان الروس ينتظرون خارج البيت ويدهم فوق الزناد . ودخل بعض الروس إلى الفناء ورأوا أبنائى وقد صعدوا إلى السطح . فانهمر الرصاص على صغارى من الجهات الأربع . وانبطح الإخوة الثلاثة فوق السطح ، وأطلقوا الرصاص على الروس الذين فى فناء البيت . كان الروس يتساقطون واحدا تلو الآخر ، فينفق الواحد منهم وينتهى أمره . أما الروس الثلاثة الذين فلتوا من الرصاص ، فقد رأوا ما حدث ولاذوا بالفرار وتمكنوا من مغادرة الفناء أحياء ..

كانت عيناى تتطلع إلى صغارى فوق السطح ، وأنا أتلوى من الألم . رفع محمد وحيد رأسه ، ونهض من مكانه ، ونظر ، ثم صاح :

ـ يا أخى ، يا أخى ، ها هى ذا مجموعة أخرى من الروس تربض هناك .

فأجابه شهيد . . بقول :

ـ اضرب بالقنبلة اليدوية ، القنبلة اليدوية . هيا ، بسم الله ، لا تخافوا ، الله معنا ، يجب ألا نقع فى أيديهم سواء كنا أحياءً أو أمواتا .

فصاح وحيد مكبرا «الله أكبر ، الله أكبر» ووقف على قدميه وفى يده القنابل اليدوية ، وأطاح بالقنبلة على الروس ، بكل ما أوتى من قوة . فسُمع صوت انفجار مخيف . مصحوب بصرخات وصياح . ولدى . . . روحى . . . كبدى . . صغيرى وحيد ، انهمر عليه وابل من الرصاص وهو يردد «الله أكبر ، الله أكبر» . ورأيته وهو يهوى من فوق السطح إلى داخل الأيكة ، مضرجا بالدماء القانية . أردتُ أن أصرُخ لكن صوتى احتبس . كنت أتلوى وسط الفناء . وأجاهد أن أستجمع نفسى ، وأفكر أننى قد أفقد وعيى فى كل لحظة . فكنت أجزُّ بأسنانى على شفتىّ . .

ثم رأيت ابنى الثانى محمد وارد . آه ياربى ، كان موفور الشباب ، رقيقا ، طاهرا ، ونقيا مثل الزهرة . تأوهت حين رأيته فألقى نظرة ناحيتى وقفز مثل أخيه وحيد وهو يصيح مكبرا « الله أكبر ، الله أكبر» وألقى بالقنبلة اليدوية التى أعدوها

بأنفسهم، ثم قفز وراءها خارج القلعة . أثناء ذلك كان الرصاص ينهمر عليه . لكننى لم أر هذا، وكنت آمل أن تكتب له النجاة. ومن ورائه قفز ابنى الأكبر محمد شهيد، ورأيته وهو يلقى بالقنبلة مرددا: « الله أكبر، الله أكبر» .

كان صوت السلاح يدوى فى كل مكان. وانعدمت الرؤية تماما بسبب كثافة التراب المتصاعد، والبارود. وزحفت حتى وصلت إلى الباب. لم أكن أعرف كيف أتجاوز جثث الروس الملقاة فى فناء البيت. الدنيا تدور بى . . . وكأن كل شىء يدور معها . الآن لم تعد عيناى تبصران شيئا. كنت أزحف مثل الأعمى، أنكَفِئ . . . ثم أواصل الزحف . كذلك أذناى، وكأن بهما صمم، لا تسمعان شيئا. لم أَعرف كم زحفت، نصف ساعة، أم ساعة . وعندما لمسَت يداى ماءً، أغمى علىّ وغبت عن الوعى .

* * *

قمرى كول تكمل الحكاية

أثناء ذلك كنت أنا وعزيزة زوجة أخى وكاملة، نختبئ فى منزل جارتنا . كنا نرتعش من شدة الانفعال، ونرتعش مع صوت كل طلقة يترامى إلى آذاننا. كانت جارتنا تتابع من برج القلعة، كل ما يجرى خارجها. وبعد ساعات، سكت صوت السلاح .

كان صاحب البيت الذى اختبأنا عنده، قد رأى كل ما حدث، لكنه كتم الأمر عنّا . فقد دخلَتْ مجموعات من الروس، القلعة بعد أن قتلوا كل إخوتى. وفتشوا كل الغرف، ثم زرعوا الألغام أسفل جدران القلعة كلها، من أولها إلى آخرها . وأطلقوا الرصاص على الأبقار، ثم استداروا على الدجاج، والديوك الرومى، والبط، والغنم، والخراف، وجعلوها هدفا لطلقاتهم الوحشية . بعد ذلك جمعوا جثث زملائهم المبعثرة فى فناء البيت وخارجه، وهم يطلقون صرخاتهم، فتدوّى وكأنها نباح كلاب. ثم ربطوا جثث موتاهم فى حصير الأرائك التى فى الفناء وألقوا بها إلى الدبابات التى جاءت فيما بعد. وكانت مجموعة أخرى من الروس، تجمع الأشلاء التى مزقتها القنابل اليدوية، ويضعونها فى الدلاء وأحواض الغسيل والصناديق التى وجدوها فى الفناء .

فتّشَ الروس كل أرجاء القلعة، تفتيشا دقيقا؛ فتشوا الحديقة، والحجرات والأسقف، فتشوا في كل مكان بحثا عن جسد أي واحد من إخوتي الشهداء، لكن ذهب بحثهم سدى، فالله العلي العظيم الذي سخَّر النحل لحماية أولئك الذين استشهدوا في سبيله في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، هو الذي أعمى عين الكفار عن أجساد إخوتي، الذين استشهدوا في سبيله، حتى لا يتفاخر الكفار بأفعالهم، ولا يسخروا أويُمثلوا بأجساد الشهداء.

لم يتمكن المجاهدون من نزول الجبل وإدراكنا، إلا مع حلول الليل. جاءوا إلينا تسبقهم طلقات أسلحتهم. وما أن سمعها الروس حتى سارعوا بركوب دباباتهم مذعورين، ولاذوا بالفرار وهم يطلقون النار على القلعة.

أثناء ذلك كان الروس قد رجعوا إلى الفلاح الذي أمسكوا به من قبل، وسألوه:

ـ أما زلتَ مُصرا على أن ليس في هذه القلعة أعداء..؟

فأجابهم الفلاح البطل، المجاهد:

ـ أيها الكافر الأبله. الذين في القلعة، أصدقاء وليسوا أعداء. قد يكونون أعداءك أنت، لكنهم بالنسبة لي أصدقاء.

فأطلقوا عليه الرصاص، ثم قفزوا إلى دباباتهم، وذهبوا، ولم ينسوا قبل رحيلهم أن يضرموا النار في قلعتنا. فتطايرت أجزاؤها في الهواء، بسبب انفجار الألغام التي زرعوها فيها. تطايرت الأسرَّة... والفراش... جثث الحيوانات... الأرض... الأحجار... كل شيء تطاير في الهواء، وأصبح ترابا.
كنت أبكي أنا وعزيزة، ونسأل صاحب البيت الذي نختبئ فيه:

ـ نستحلفك بالله، تكلم، ما هذه الانفجارات..؟ ما الذي يجري بالخارج..؟

فأجاب بصوت باكٍ:

ـ اصبرا، عليكما بالصبر، اصبرا الآن. فقد حلَّ المساء، وبمجرد أن ينصرف الروس سنذهب ونرى ونفهم ما جرى.

ثم غشى السكون المكان كله . وكأن الدنيا قد ماتت . سكون تام ، لا صوت انفجار ألغام ، ولا صوت سلاح . امتلأ قلبى وأعماقى بإحساس أعجز عن وصفه . ولم يبق فى قوس الصبر منزع . فقلت لصاحب البيت :

- لابد أن الروس قد غادروا القرية . أنصت ، لقد انقطعت كل الأصوات . لقد ذهبوا بإذن الله . سأخرج ، أستودعك الله ياَخالة .

خرجنا أنا وعزيزة ، وكاملة ذات الأربعين يوما ، ولم يُمانع صاحب البيت فى خروجنا ؛ وإن لم أستطع أن أدرك سبب بكائه ونحيبه . خرجتُ من قلعة جارنا وأنا منفعلة ، وخرج معنا صاحب البيت وأقاربه . . . ياإلهى ، . . . ياأعظم الأعظمين ، لقد زال كل أثر لقلعتنا ، ولم يبق مكانها إلا دخان .

أخذت أجرى مثل المجنونة ، أصيح وأنادى على إخوتى . كنت لا أختلف عمن جُنَّ عقله . أجرى فى كل اتجاه ، أبحث عنهم . . . كل الناس خرجوا من بيوتهم ، وأتوا إلى مكان قلعتنا ، الجميع يبكى ويتفجّع . وأنا أمسك بكل امرأة أقابلها ، أهزُّها وأصيح أسألها :

- تكلمى . . . ماذا حدث . . ؟ ماذا أصاب منزلنا . . ؟ من فعل هذا . . ؟!

والنساء تبكى ، وتردد كلاما . . . لم أسمع شيئا مما قُلْنَهُ . كنت أبكى وأنادى :

- أمى ، أمى ، ماذا حدث . . ؟ . . إخوتى ، ماذا حدث . . ؟

أمسكَتْ بى إحدى النساء وأخَذَتْ تهزنى لأسْترد نفسى ، وهى تقول :

- أفيقى يا ابنتى ، أفيقى . ها نحن ذا كلنا نبحث عنهم . لقد نسف الروس القلعة بالديناميت . اذكرى الله ، عليك بالدعاء .

كنتُ أبكى وأرددُ بينى وبين نفسى :

- هل نسفتهم الألغام ، لا ، لا يمكن ، لا يمكن أن يحدث هذا ، يا إلهى .

ولما تمالكتُ نفسى ، أخذتُ أبكى وأصيح وسط النساء :

- لعلهم اختبئوا فى البيت . أليس كذلك . . ؟! لابد أنهم فى مخبئهم وراء الحائط . . ! أمى . . . شهيد . . . وحيد . . . وارد ، يا إلهى ، ألهمنى الصبر .

ساعَدَتنى النساء أيضا فى البحث عن إخوتى، كُن لا يعرفن حقيقة ماحدث. فقد كن مختبئات فى منازلهن. لكن الرجال كلهم رأوا القلعة وهى تنسف بالديناميت. كل النساء، وكل المجاهدين، حملوا الفئوس والمجاريف وبدءوا فى رفع الأنقاض بحثا عن إخوتى تحت الحطام. وجلستُ أنا فوق كومة، وقد عقدتُ ذراعَى. كنتُ ألمح زوجة أخى من حين لآخر، وهى تبكى وتهرول فى كل اتجاه. واستمر رفع الأنقاض حتى منتصف الليل. كان المجاهدون والنساء والأطفال، كلهم يعملون وقد فقدوا الإحساس بالتعب، وبعضهم يردد فيما بينهم:

- ربما مزقَتْ الألغام أجسادهم.

قال أحد الأطفال:

- رأيتُ الروس وهم يجمعون قطع الأشلاء، ويضعونها فى الدلاء ثم ينقلونها إلى الدبابات. لقد رأيتهم.

سمعتُ هذه العبارة. فكدتُ أجن. وانتفضتُ من مكانى وأنا أبكى، وأخذتُ أجرى، وأجرى إلى بعيد. كنتُ أهرب من سماع أى شىء.

كان الهواء فى تلك الليلة جميلا، والسماء مرصّعة بالنجوم. وأنا أجرى بين الأشجار ودموعى لا تنقطع. وتعلقت عيناى بالنور الذى ينبعث من أسفل شجرة التوت الضخمة. أرى أشياء تتحرك ببطء، وتشير إلىّ بإشارات كأنها تنادينى: تعالى، تعالى. فتقدمت على مهل... يا إلهى، ياربى، إنهم هُم..!... لقد وجدتهم..!... كأن النور الذى يفيض من وجوههم قد غشى المكان كله. فأخذت أنادى بكل ما أوتيتُ من قوة، والدموع تُخالط صرخاتى:

- إنهم هُنا... إنهم هُنا، تعالوا..! أستحلفكم بالله، تعالوا.

لكنهم كانوا يبحثون بين الأنقاض فى مكان بعيد عنّى، فلم يسمعوا صرخاتى، ولم يرونى. ثم احتبس صوتى. فلما أدركتُ هذا، انحنيتُ على الأرض، وأدرتُ وجه أحدهم. ورفعت رأسه وقبّلتُ وجهه، قائلة:

- آه، محمد وحيد..! إذَنْ أنت ياأخى الحبيب، بورِك استشهادك.

ثم قبّلتُه من جبينه. لقد أصابوه فى صدره بالضبط. ووضعتُ يدى فوق صدره الذى تتدفق الدماء منه، وأنا أردد:

ـ أتَركتني أنت أيضا . . ؟ آه ، إنه أمر الله العلى العظيم ، لقد أرادك الله ، فاذهب يا أخى ، يا حبيبى .

ثم احتضنتُـه ، ورفعتُه من الأرض ، بقدرة تفوق قدرة البشر ، وكأن هناك من يساعدوننى ويرفعونه معى .

كان الجميع مازالوا مشغولين برفع الأنقاض . فتقدمت ناحيتهم مباشرة ، وأنا أحتضن أخى وحيد . لم أذرف دمعة واحدة . ورأتنى إحدى السيدات وأنا أتقدمُ نحوهم ، فأطلقَتْ صرخة مدوية . والتفت الجميع ناحية الصرخة ، فشاهدونى . . . نظروا إلىّ غير مصدقين . وأطلقَتْ عزيزة صرخة وهى تبكى وتجرى ناحيتى وتقول :

ـ وحيد . . . يا أخى الحبيب ، وحيد . . !

وضعتُ جسده فوق الأرض برفق . وجذبتُ نقّالة حصير مزَّقَتْها الألغام ، وأرقدتُ أخى فوقها . الجميع صامتون ، ماعدا عزيزة ، كانت تبكى بحرقة ، والأخريات يشاركنها البكاء ، ويرددن عبارات الرثاء .

وقفتُ بجانب جثمان أخى بُرهة ، ثم رجعت إلى شجرة التوت التى وجدته عندها ، ومعى الآخرون ، فقد أدركوا أننى عثرت على مكان إخوتى . كان أخى الثانى يرقد على ظهره . فانحنيت فوقه ، ونظرتُ . إنه أخى محمد وارد . أراد أحد المجاهدين أن يحمله ، لكنى دفعته ، وأخذتُ أخى بين ذراعىّ . وجذَبَتْ إحدى النساء نقالة إلى جواره ، فأرقدته عليها . كان مصابا فى صدره مثل أخيه وحيد . كان النور يفيض من وجهيهما مثل البدر ، فيشعّا نورا . كان الجميع يتهامسون :

ـ انظروا ، انظروا النور الذى يفيض من وجهيهما .

بدأت مجموعة من المجاهدين فى البحث عن أخى محمد شهيد . كان كل واحد منهم يحمل فى يده مصباحا ، ويبحثون تحت كل شجرة ، وكل عشب ، وكل أيكة . رأت عزيزة زوجة أخى أن المجاهدين لم يعثروا على أخى شهيد ، فقالت :

ـ ياربى ، يبدو أن الروس أخذوه حيّا . أنا ذاهبة يا «كول» ، ربما عَثُر أبى عليه ، وأنْقَذه من براثنهم . ثم انطلقَتْ تجرى إلى منزل والدها فى القرية المقابلة .

صاحت بعض النساء فى أبنائهن ذوى الثانية والثالثة عشرة من عمرهم :

ـ اجروا ، اذهبوا معها ، لاتتركوا العروس تذهب بمفردها .

انطلق الأطفال كالسهام ، وجروا فى أعقاب زوجة أخى . قالت الفتاة الشابة ابنة صاحب البيت الذى اختبأنا عنده :

ـ سأذهب أنا أيضا معها . ليس من الصواب أن نتركها بمفردها .

ثم ذهبَتْ مع الأطفال لتلحق بها .

بدأ صوت الآذان يتردد من بعيد ، لقد بزغ الفجر . كان الجميع يبحثون عن أمى وعن محمد شهيد ، بغير كلل أو ملل . وأثناء ذلك أقبلَتْ سيدتان تبكيان وتهرولان ناحية أخوىّ . قالت إحداهما ، وكانت متقدمة فى السن ، وهى تبكى وتلف ذراعيها حول عنقى ، تعانقنى :

ـ آه . . يا «كول» يا ابنتى ، لقد ذهب إخوتك . كما ذهب ابنى الوحيد . لقد قتلوه هو أيضا . آه ، لقد وجدناه ملقى على الطريق مربوط اليدين . آه . . ياابنتى ، ابكى ، ابكى .

اتضح أن هاتين السيدتين هما أم الفلاح المجاهد الشهيد وزوجته . وبعد بضع دقائق ، أحضر المجاهدون جثمان الفلاح الشهيد ، محمولا فوق أكتافهم ، ووضعوه على النقالة بجوار أخوىّ . نظرتُ إليه وقلت وأنا أطلق العنان لنحيبى الذى يملأ حلقى :

ـ بارك الله شهادتك ياأخى . . .

كانت والدة الفلاح الشهيد تُقبّل جبين وحيد تارة ، وجبين وارد تارة ، وتارة أخرى جبين ابنها ، ثم تُجهش بالبكاء .

ملأ النور المكان . الناس يتوافدون من كل حدب وصوب . ثم نهضْتُ من مكانى ، ومشيت ثانيةً ناحية المروج والحقول . كنت أشعر وكأن أحدًا يمسك بيدى ويقودنى إلى تلك الناحية . وفجأة تناهى إلى سمعى صوت بعض المجاهدين يقول :

ـ يبدو أن محمد شهيد مازال على قيد الحياة. لقد رآه البعض يقفز سالما من فوق السطح. .

وكأن أشياء تعتمل بداخلى، فحدثت نفسى:

ـ آه. . إن شاء الله، إن شاء الله يكون على قيد الحياة.

كنت أجرى فى كل اتجاه، وأصرخ:

ـ أخى، أخى، أخى محمد شهيد.

أصيح لعلى أسمع جوابا. كنت أبحث فى كل مكان، الشمس متوهجة. . . لقد تعبت. وإذ بى قد وصلت إلى حقولنا. فجلست فوق الصخرة التى أسفل شجرة التين، ووضعت رأسى بين يدىّ. وأنا أبكى وأنتحب.

كنت آتى إلى هذا المكان فى طفولتى، حتى بلغت السابعة أو الثامنة من عمرى. مضى زمن بعيد على هذا. لم يتغير شىء. فكل شىء كما كان فى ذلك الزمان. . . كنت آتى مرارا مع أخى شهيد. ونظرت إلى النهر الذى يجرى ماؤه متدفقًا من المجرى أسفل الحقل. كم لعبت هنا مع إخوتى ونحن صغار. فكنا أحيانا نحفر قناة لتوصيل الماء إلى الحقل. ونظل نلعب هناك لساعات طوال، نرُشّ بعضنا بالماء ونجرى.

وهنا عند حافة النهر مكان يُشبه الغار، يصل إليه الماء نَذرًا. وعندما كنت ألعب مع إخوتى فى فصل الصيف، كان شهيد يختبئ داخل هَذا الغار، ويرقد داخل الماء. ولأن الغار مظلم، لم يكن أحد يفطن إلى وجوده هناك.

تعلّقت نظراتى بذلك الغار. وكأن الغار أيضا يتطلّع إلىّ. بينما مجموعات المجاهدين يفتّشون فى الحقول الأخرى. نهضت من مكانى بحركة لا إرادية، وجريت ناحية الغار. أنا فقط أعرف هذا المكان الذى كان شهيد يختبئ فيه ونحن أطفال. فقد أخبرنى به، أنا فقط. بل إنه كان يأتى إلى هناعندما يغضب فى المنزل. وصلت عند الغار، ونظرت بداخله. . . ليس بداخله أحد. فنظرت داخل الماء، ورأيت بحيرة من الدم تعلو صفحة الماء الساكن. كان العرق يتصبب منى باردًا

كـالثلج . وأنا أرتعش . انحنيت ، . . . وأزحتُ الماء بيدى ، فظهر أخى بوجهه الأبيض ، ولحيته السوداء . . . كان ممدداً داخل الماء ، والابتسامة تعلو وجهه . . لقد وجدته . كان يضحك مثلما يضحك عندما كنا نعثر عليه فى مخبئه ونحن صغار . كان الكلاشينكوف الذى وضعها بنفسه فى حضنه ، مازال كما هو . تأمَّلْتُه للحظة ، وأنا أبكى وهو مضرجٌ فى هذه الدماء الحمراء ، ثم انطلقتُ من الغار أجرى وأنادى على النساء والمجاهدين المستمرين فى البحث هناك :

ـ محمد شهيد هنا . . . تعالوا ، لقد وجدته .

استدار الرجل على عقبيه ، ورجع مثل الصاعقة ، يا إلهى . . . إنه أبى . جريت نحوه ، وجرى ناحيتى ، وعانقته وأنا أردد :

ـ أبى . . . أبى ، أين كنت . لقد رحلوا بدون وداعك . لقد تركونا ، أبى . . . شهيد هنا ، إنه يرقد هناك . . . وسط الماء .

مسح أبى دموعه ، ونظر إلى الغار . أخرج المجاهدون أخى من قلب الماء ، وأرقدوه فوق التراب . ووقف أبى فوق رأس أخى وهو يقول :

ـ كفى ياابنتى ، لقد ودَّعتُ ابنى منذ زمن بعيد . فهذا هو طريقنا جميعا . الحمد لله . الحمد لله أنهم استشهدوا فى سبيل الله . بوركت شهادتهم لى . . . ولك . . . ولنا جميعا .

ثم تقدم قليلا ، وسجد سجدة شكر لله ، وسط نظرات الدهشة التى ارتسمت على كل الوجوه من حوله . ثم انحنى وجفف بيده شعر أخى المبلل ، ونظف لحيته مما علق بها من رمال ، وقبَّله فى جبينه ، وتكلم طويلا فوق رأس أخى والدمع ينهمر من عينيه :

ـ بوركَتْ شهادتك يا ولَدى ، فأنا راض عنك ، وليرضى الله عنك . إن شاء الله تكون ممَن يسعدون بصحبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولتكن الجنة مثواك . . . لك الحمد ياربى ، نبتهل إلى الله أن يتقبل جهادنا .

انحنى أحد المجاهدين ليأخذ الكلاشينكوف من حضن أخى ، لكن أخى ما كان أبدا يترك سلاحه . حاول الجميع ، كل رجل وكل امرأة ، كلهم حاولوا ، لكن بلاجدوى . فانحنى رجل طاعن فى السن ، وهمس فى أذن أخى :

ـ لقد استشهَدْتَ ياولدى فى سبيل الله ، فليتقبل الله شهادتك . دعك من متاع الدنيا ، فهو لايناسبك الآن . واعلم أنك ستسلِّم سلاحك لأيد أمينة ، إنهم إخوانك فى الجهاد . وسينستعملون سلاحك فى سبيل الله ، دَعْه لنا .

قال هذا وانحنى فوق أخى الذى كان ما زال ممسكا ببندقيته فى حضنه . . . وقد أطبق عليها ذراعه بشدة . وما أن لمس الرجل الكلاشينكوف ، حتى انزلقت يدا أخى المُمسكة بالسلاح ، شيئًا فشيئا ، واستقرت بجانبه ، ونحن جميعا مشدوهون . الكل يبكىَ ويردد :

ـ الله أكبر ، الله أكبر ، تُبنا إلى الله ، ورجعنا إلى الله .

ويصلُّون على رسول الله ـ ﷺ ـ ويهنئون أنفسهم بشهادته .

أخذ الشيخ ، السلاح من أخى ، ثم استدار وأجهش بالبكاء . لفّوا أخى بغطاء ، وحملوه فوق أكتافهم ، ونقلوه إلى جانب بقية الشهداء .

أثناء ذلك أقبلت زوجة أخى وأبواها ، وأخوها ، وجوههم شاحبة ذابلة ، وأنفاسهم متقطعة من الجرى ، وأقدامهم حافية . وجالت ببصرها ناحية الشهداء . وما أن وقع بصرها على أخى ، حتى اندفعت ناحيته ، ووقفت عند طرف رأسه تبكى . وكأن كل شىء كان يبكى آنذاك : الأحجار ، والأشجار ، والطيور المُحلِّقة فى الهواء ، والأرض ، والسماء ، كل شىء يبكى . وأنا وسط هذا البكاء ، أبكى أسأل :

ـ أبى ، أين أمى . . ؟ أين أمى ... ؟ لم نجدها . . . تُرى ماذاجرى لأمى . . ؟!

أجاب أبى :

ـ اهدئى ياابنتى . أمك على قيد الحياة . لقد أصابوها فى يدها ، وعثر عليها البعض بجوار جدول الماء ، وسيأتون بها بعد أن تتمالك نفسها .

فحمَدتُ الله كثيرا .

كان إخوتى الأربعة الآخرون ، يقفون بجوار إخوتهم الشهداء ، يذرفون الدمع . وبعد بضع ساعات قال أحد المجاهدين :

ـ أرى أن نحمل الشهداء إلى فناء بيت فى هذه الساحة ، سيكون هذا أفضل .

كان لنا بيت قديم بجوار بيت عمتي . كان ذلك البيت ملكا لأبى ، أعطاه له جدى وهو على قيد الحياة . وقد عشنا فيه أيام طفولتنا ، قبل أن نبنى قلعتنا . وعندما اكتمل بناء بيتنا الجديد ، انتقلنا إليه ، وابتعدنا عن جيرة عمتى ، وبالتالى أصبح ذلك البيت القديم مهجورا . فطلب أبى من المجاهدين أن يحملوا الشهداء إلى ذلك البيت .

بدأ الناس يتوافدون علينا فى ذلك البيت . فدخلتُ مع النساء إلى حجرات البيت الخالية ، بعضهن أحضر طعاما ، وفراشا ، وبُسُطًا ، وحصيرا من بيوتهن ، وعملن كل ما يلزم لنا وفجأة التفتُّ على صوت يقول :

ـ أأنت يا ابنة مريد . . ؟ لماذا جئتم إلى هنا . . ؟ لقد دمرتم قلعتكم . والآن ، هل أتى الدورَ على بيوتنا لتدمروها . . ؟ . ألا تنطقين . . ؟

هربت الدماء من كل جسمي . وبدأت ارتعش . ونهضت امرأة عجوز من مكانها تحدثها :

ـ التفتى إلىّ أيتها المرأة السيئة ، إنه يومك أنت أيتها الشيوعية القذرة .

ثم غادرت الغرفة . كان صوتها يأتى من خارج الفناء وهى تقص على المجاهدين ما جرى . فدخل أحدهم ، وطرح تلك المراة الشيوعية أرضا ، وجذبها من شعرها ، فصرخت وشاركتها بناتها الصراخ ، وتهيأ مجاهد آخر بسلاحه قائلا :

ـ ماذا تقول زوجة أبو بكر هذه . . ؟ إن قتلها فريضة علينا لتخليص الدنيا من إحدى جرائمها .

هاج الجميع وماجوا ، وكادت المرأة أن تمزق إربا . وقد انزوت فى ركن ، وهى ترتعش وترمق المجاهدين بنظراتها الخائفة . فاندفع أبى من وسط الحشد وحال بينهم وبين أخته قائلا :

ـ كفوا أيديكم ، لا تضربوها ، لا تظنوا أننى أحميها لأنها أختى . كلا ، فلا يجوز أن يكون الكافر المشرك المنافق أخًا للمسلمين .

لكنكم إن قتلتموها الآن ، سيقول الشيوعيون للناس :

ـ انظروا، إنهم ينتقمون من العجائز، ثم ما جدوى قتلها. . !! إننا نعرف جيدا على من نُضَحى برصاصاتنا. . .

ثم التفت إلى أخته قائلا:

ـ أعرف أنك أبلغت أبنائك بمكان أبنائى. . . وأعرف أيضا أن ذلك البرشمى المقنع الذى جاء مع الروس، هو ابنك. . . لقد ربيتُ أبنائى ليوم كهذا، وأحمد الله أن تحققت أمنيتى. . . لكن أنت. . . أنت أتعس امرأة فى الدنيا. . . لقد دعوت الله كثيرا أن يهديك. . . لكنه لم يكتب لك الهداية. . . إننى أعرف لماذا أنت متمسكة بالبقاء هنا، على أمل أن يتولى البرشميون زمام الأمور مرة أخرى، وعندئذ يستحوذون على كل شىء. أليس كذلك. . ؟؟ لقد أعماك متاع الدنيا، تفضلين أن تُضَحى بأولادى، عن الرحيل من هنا. إذا كنت تظنين أن كل شىء قد انتهى باستشهاد ابنى شهيد فأنت مخطئة، فهؤلاء جميعا، كل واحد منهم شهيد، وكل واحد منهم وحيد وفريد. والآن، أغربى عن وجهى، واذهبى إلى جهنم مأواك أنتِ وأبنائكِ.

عقب هذا انصرفتْ هى وبناتها من البيت.

* * *

مضى أسبوعان بعد هذا، ونحن نُعَوّد أنفسنا على الحياة الجديدة. فقد شُلَّت يدُ أمى اليسرى، وفقدنا كل ما نملكه. الجميع يسارعون لتقديم المساعدة لنا. فهذا يأتى لنا بوعاء، وهذا يأتى بقماش، وهذا بلحاف. . . بينما محمد مزيد فى الجبهة لايعلم شيئا عما جرى لإخوتى. وفى اليوم الذى غادرَتْ فيه أمى المستشفى الذى نقلت إليه بعد إصابتها، كان أول سؤال لها فور عودتها إلى البيت:

ـ أين أبنائى. . ؟ إنهم بخير. . . أليس كذلك. . ؟!

واحترنا لسؤالها. ذلك لأن النساء ـ أثناء دفن إخوتى ـ أمسكن بيد أمى، وأتين بها فوق رءوس أبنائها، لتُلقى عليهم النظرة الأخيرة. لكنها من شدة الألم، لم تَعِ شيئا من هذا. كان عقلها تائها فى تلك اللحظة. . . وها هى الآن تسأل عنهم.

وبعد بضعة أيام، اصطحبْتها أنا وزوجة أخى إلى مقابرهم، إلى مكان قلعتنا التى نسفتها الألغام، والتى استشهدوا عندها. كانت تبكى، وتسأل فى ذهول:

ـ أفصحوا، لمن هذه القبور، . . . أهى قبور أبنائى. . ؟!!

* * *

علم الجميع بأمر استشهاد إخوتى. كان البرشميون، يطبِّلون ويزمِّرون تعبيرا عن سعادتهم. ولصقوا البيانات فى كل مكان ليُعلنوا خبر وفاة إخوتى. وتوافد على القرية قادة الجبهات الأخرى، والإخوة، والمجاهدون من المدن الأخرى، لقراءة الفاتحة على أرواحهم. كما علم المجاهدون فى الجبهة التى يجاهد فيها أخى مزيد، بأمر استشهاد إخوتى، لكنهم كتموا الأمر عنه. . . قال القائد لمزيد:

ـ يمكنك الآن أن تذهب إلى البيت، فهناك أمور ستبحثها مع أخيك. وسنسافر غدا جماعة. فأنا أريد مجموعة من المجاهدين من النوع الذى تعرفه. كما أن لدىَّ أعمالا أخرى. . . سنسافر غدا إن شاء الله، فى الصباح الباكر. . . كن مستعدا لهذا.

فقال أخى مزيد:

ـ اذهبوا أنتم وسأظل أنا هنا.

لكن القائد أثناه عن رأيه وأقنعه بمرافقتهم.

أثناء الطريق، قابلهم أحد المجاهدين، جبهتنا، فأبلغ مزيد:

ـ إن أهل بيتكم، انتقلوا إلى البيت القديم، فالمكان هناك أكثر أمانا.

فجاء أخى المجاهد مع إخوانه، إلى البيت القديم مباشرة. وعند دخوله فناء البيت، قابل زوجة أخى التى سارعت بدخول الغرفة، بدون أن تسلِّم عليه، حتى لا يغلبها البكاء. وكنت أجلس بجوار الحائط. فنهضتُ وقابلته وأخذتُ منه سلاحه. فقال أخى:

ـ معى القائد والمجاهدون، أعدّى قليلا من الطعام. لقد جاءوا لمقابلة أخى والتحدث معه.

نظرتُ إليه فى حيرة، كنت أعتقد أنه علم بما جرى، وتبينت أننى مخطئة. عاد يسأل مرة أخرى ويكرر الأسئلة:

- أين أبى..؟ هل هو فى الحقل..؟ وأين محمد وحيد، أين أخى..!

أطرقتُ برأسى وسكت. لم يفهم معنى سكوتى. وسأل مرة أخرى:

- تكلمى يا «كول» أين هُم..؟ لماذا أنت صامتة..؟

ولمّا لم أجبْه. صاح داخل البيت وقال:

- زوجة أخىِ، زوجة أخى، ماذا هناك، أفهمونى أستحلفكم بالله..؟

وقفت زوجة أخى عند عتبة الباب وقد خفضت رأسها والدموع تنهمر من عينيها.

صاح مزيد فى حدة:

- هل ستجننوننى..؟.. أين كاملة، أمى، أمى..!

وأخذ يصيح بكل ما أوتى من قوة.

كانت أمى ترقد مريضة، فأجابته من الداخل وهى تئنُ من وطأة المرض. ولم أعد أحتمل أكثر من هذا، فقلت له:

- اذهب، لا تسألنى، اذهب إلى قلعة الرحيم، إنهم ينتظرونك هناك، حيثما كانوا. لقد مضى حوالى شهر على استشهادهم. أرادوا الله، فتركونا ومضوا.

كانت عيناه مصوبتين على فمى، وهو غارق فى الذهول... ثم انحنى على الأرض، وأجهش فى البكاء... لقد عرف الحقيقة توا... وتلقّى الخبر الأليم.

* * *

بعد أسبوع، تولى أخى «مزيد» بنفسه وبمفرده، تجميل مقابر إخوتى الشهداء. وبعد بضعة شهور، هاجرنا أنا وإخوتى، وعبرت الحدود مع أمى بعربات الهجرة، بينما جاء محمد مزيد وإخوتى الأربعة الصغار من طريق الجبل.

وانتهت قصة قُمرى كول.

* * *

لقد استقرت أسرة الشيخ مريد هنا، والتحق الإخوة الصغار بمدرسة أبى حنيفة، أما «قُمرى كول»، فأيامها تمر فى رتابة. وعندما اشتد المرض على أمها، رجعت مع أمها إلى أرض الوطن أفغانستان، إلى أن تتحسن صحتها. وتتولى زوجة أخيها إعداد الطعام للصغيرة اليتيمة كاملة، ولوالدها اللذين أصبحا فى هذه الحالة كالمجاهدين. تقول «قمرى كول» إنهم اشتاقوا كثيرا إلى الصغيرة كاملة. وترسل زوجة أخيها خطابات مع كل ذاهب إلى أفغانستان تقول فيها:

- أدعو الله أن تتحسن أمى، سنعود إن شاء الله.

أتمت كاملة سنة ونصف السنة من عمرها. وهى تشبه والدها تماما، فهى كالملاك، عيونها زرقاء، ووجهها أبيض مثل الثلج، وشفتاها قرمزيتان. كانت أول كلمة نطقت بها، هى الله، الله. والآن كلهم يهتزّون لكلماتها هذه، غير محزونين لأنهم يربونها لتصبح مجاهدة. . بل إنهم متفائلون، ومؤمنون وسعداء، ويرددون:

- ستتحرر أفغانستان. وعندئذ سننتشر نحن الصغار فى كل أنحاء الدنيا، ونسارع للجهاد ونكافح، إلى أن يرتفع لواء الإسلام خفاقا فوق الدنيا كلها. الحق معنا، والنصر قريب بإذن الله. والسلام.

تمت بحمد الله وتوفيقه

رقم الإيداع ٢٠٠٢/٢٠٩١
الترقيم الدولى 1 - 0790 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥(٠١)

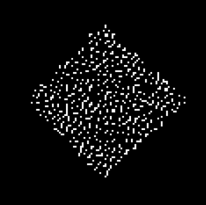
معسكر الأرامل



فى هذا الكتاب تحكى الروائية الأفغانية (مرال معروف) قصة زيارتها لمعسكر الأرامل فى (ناصر باغ) فى باكستان، حيث لايعيش فى هذا المعسكر إلا النساء والفتيات ، ومعهن أولادهن الذين لا يتجاوز عمرهم الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . كما يعيش فيه أيضاً النساء والأطفال الذين فقدوا أهليهم. ومع هؤلاء تعيش أمهات وزو[illegible] الشهداء ، لا حول لهن ولاقوة. ولا ملجأ لهن سوى الله العلى [illegible] كذلك أولئك اللاتى لم يبق لهن أحد فى الدنيا.

ويضم هذا الكتاب عدة قصص روائية واقعية هى :

قصة أرملة الشهيد عماد الدين ـ حكاية الجدة العجوز ـ قصة الشهداء أولاد الشيخ مريد وبدء الجهاد الأفغانى بعد استيلاء الشيوعيين على السلطة.



دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)